أدمون صبري

خبز الكرمة

أقاصيص

ادمون صبري

خبز الكلمة

اقاصيص

نعم ، حينما أكتب شيئاً استشعر المتعة كما استشعرها حينما اقرأ المسودات . وحالما يخرج هذا الشيء من المطبعة لم أعد أطيق احتماله ، أجده في الحال ليس كما كنت اريده ، فثمة خطأ ، وكان يجب ان لا يكتب مطلقاً فأشعر بالغضب والحزن (ضحك) وبعد ذلك يقرأونه الناس ويقولون : نعم انه رائع وكتب بمهارة ... رائع ولكنه بعيد عن مستوى تولستوي او انه عمل جيد ولكن كتاب تورجنيف الآباء والابناء احسن منه ، وهكذا يستمر الحال حتى يوم مماتي ، كل شيء رائع وماهر ولاشيء آخر . وعندما اموت سيقول اصدقائي عندما يمرون بقبري : هنا يرقد تريجورين ، كان كاتباً جيداً ولكن ليس جيداً كتورجنيف .

من مسرحية النورس

لشيكوف

يوم الطفل

كان زامل يعمل بستانياً في حديقة البهو الرسمية ، يسلخ من يومه مايزيد عن عشر ساعات لجمع الاعشاب الذابلة وتنمية الخضراء وفتح الماء الى القنوات وتشذيب وترتيب المعوج والناشز من الاغصان والاوراد ، وينظر بين حين وحين من باب الفضول الى المستشفى حيث قوافل المرضى والمصابين يدخلون ويخرجون . كان يقول دائماً وهو يتنهد ـ ان الانسان مهما نعم بهذا البهو وحديقته الرائعة فأنه يذكر ان في المستشفى اناساً يتعذبون ويموتون ـ .

مارس عمله هذا سنين طوال منذ أن طرد من مزرعته وأجبر على الهجرة الى بغداد ، وقد شهد مئات الحفلات تقام فوق هـــذه الاعشاب التي ينميها ويتعهدها ويجعلها فتنة للناظرين . كان المحتفلون في كل مرة يفدون بأ كمل زينتهم واناقتهم ، فيقتعدون الارائك ويؤدون ما يسمونه (فريضة الحفلة) وهي تناول اللذيذ المشتهي من الطعام ، والاخضر والأصفر من الشراب ، والممتع السائغ من الموسيقى حتى يملوا ويضجروا من الطعام والشراب والموسيقى جميعاً . هذا ما كان يقع في الأمس البعيد وما كان يقع في الامس القريب وما يقع اليوم وما يقع في الغد • ترف وتبطر ونعيم .

كان زامل من سكان بغداد ، يسكن في مكان بعيد عن صخب المدينة ، وبعيد كذلك عن نظافتها وراحتها وكهربائها ومائها ومأموري أمانتها . وراء سداد المرحوم ناظم باشا ، هذا الباشا الذي انقذ بغداد من الكلاب السائبة وشيد لها سوراً جامعاً مانعاً تراكم وراءه فيما قبل من الايام جحفل المهانين والمطرودين والمعذبين

كان زامل قد أنجب من زوجته الواحدة عشرين من البنين والبنات ، توفي أربعة منهم ، وهو أقل عدد تفقده عائلة وراء السداد ، ثم انه ينتظر ابنه الحادي والعشرين بعد شهرين .

كان قدتسامع منزميل له يعمل بستانيا معه في حديقة قاعة الشعب ، ان ثمة احتفالا سيقام بمناسبة مادعوه (يوم الطفل) ولسوف توزع جوائز مالية مغرية سخية للعائلة التي تحوز اكبر عدد من الاولاد ، وقد نقل زامل الخبر الى زوجته ، وهي شبه عجوز نحيلة مخسوفة الصدر لها عينان ذكيتان ولسان ذرب وجرأة تحسد عليها ، فسرت للفكرة وراودها حلم احراز مثل هذه الجائزة المشهية ، الا انها لم توفق تماما الى تكييف ذهنها بالشكل المقنع الى جدوى المحاولة . اذ كيف يجوز لها ان تحضر مثل هذا الاحتفال الذي يحضره الوجهاء والموسرون واولوا السلطان والجاه ، وهي في احسن وصف قروية حافية موشومة الوجه تأكل سمكا نتنا وتتمخط بثيابها . ومع ذلك فلم تيأس . كانت ذات عزم وجلد وطموح ، فكرت ان تعالج الامر بنظافة نفسها والتماس حمام عمومي تغتسل فيه بالمـــاء الحار والصابون وتحشو قدميها بحذاء مستعمل تستر حفاءها ثم فكرت انها ليست بدعة بين النساء العراقيات فانهامع مثيلاتها يشكلن ثلاثة ارباع نساء البلد ، فحزبهن هو حزب الغالبات

وفكر زامل من جانبه باولاده الكبار المضيعين . فان ابنه البكر المتزوج قد ارتحل الى البصرة واشتغل حمالا في الرصيف ، وله ابن ثان يعمل في سيارة باص قلما يحضر البيت قد فقد عينه وهو صبي ، وله ابن ثالث هو جندي هارب يعمل خادما في مقهى وينام هناك ، ثم ان بقية اولاده يعمل بعضهم مع زمر البنائين ينقلون الطين ويصبون الماء على قوالب السمنت والبعض الاخر صبيانا لايعملون . ثم ان له بنتا متزوجة قد اختصم زامل مع زوجها وانقطعت ما بينهما من علاقات طيبة رغم انه يسكن مع ابنته في صريفة قريبة . وقد تعهد زامل لزوجته ان يتدارك

الامور مع اولاده الكبار وابنته ويسوى ما بينهم من مشاكل ويهيأهم للاحتفال العظيم (يوم الطفل) وتعهدت هي من جانبها ان تعنى بالجنين المتوقع ولادته بعد شهرين وتتفادى الاذى الذي قد يصيب بطنها ويحملها على الاجهاض فيقع مالا تحمد عقباه وتخسر العائلة عضوا منتظرا . ثم ان لها ابنة في عامها الثاني قد مرضت منذ شهرين ، وحملتها غير مرة الى مستشفى الحمايةفلم تجدها المعالجة السقيمة فتيلا فقطعت الرجاء في شفائها واسلمتها الى القدر . غير ان فكرة احراز جائزة يوم الطفل دفعتها بقوة الى التماس علاج اجدى لابنتها . حملتها الى المستوصف مجدداً وكان هذه المرة مستوصف الهلال الاحمر في العلوية ، حيث يرتاده عدد اخف من النساء وتبذل فيه عناية ملحوظة ، فعرضتها على الطبيب وتوسلت اليه ان ينقذ حياتها ، ولم تستطع كتم غرضها فاعلنت للطبيب انها تعتزم الاشتراك بيوم الطفل فلديهامن البنين والبنات مايبلغ سبعة عشر ولدا اذا ادخلت في الحساب وليدها المنتظر . فابتسم لها الطبيبومازحها وسألها ان كان لها ولزوجها واولادها من الجرأة وثبات الجنان ما يضمن احتفاظهم برباطة جأشهم في الاحتفال العظيم الذي يحضره من الشخصيات مايجعل حضوره هو ، الطبيب المرموق شيئاً في غير مكانه . ونصحها ان تسقى طفلتها الحليب وبعض عصير الفواكه وتجنبها الوساخة والذباب ، فصدعت لوصية الطبيب قدر مايسعفها الحال .

اما زامل فقد كتب لابنه في البصرة ان يحضر لبغداد للتهيو للاحتفال بيوم الطفل ، غير انه لم يشهد السخرية التى ارتسمت على شفتى ابنه حينما فهم موضوع الرسالة ، ومع ذلك فقد كتب لابيه جوابا مفاده ان الاعمال كاسدة فى الميناء ولا يملك مالا وان شاء فليبعث له دينارين يستعينبهما على التوجه الى طرفه ، فحول اليه زامل دينارين وحضر ابنه بغداد وصار يقاسم العائلة طعامهم وشرابهم ريثما يحل يوم الطفل ، اما عامل السيارة الاعور فقد حضر من غير دعوة ورجا اباه ان يسلفه

بعض المال ليتزوج ثم يخصم السلفة من حصته بالجائزة ، وكان هذا اشدا ولاده تحمسا وارتقابا ليوم الاحتفال . اما الجندي الهارب فقد حسب للامر الف حساب ، انه احتفال كبير وفخم يحضره عدد كبير من الانضباط الموكلين بمطاردة الجنود الفارين والقاء القبض عليهم فيتعرفون عليه ويضعون القيود في يديه وهو في غمرة النشوة فيكون الاحتفال وبالا عليه وبلية ، فطمأنه زامل انه سيخفيه بعباءته ويبعده عن انظار الانضباطيين ، ثم شرع يتقرب الى زوج ابنته لاجل مصالحته ، وكان هذا عاطلا يحترف بيع اللبن الرائب في الكوؤس ويلقى من مضايقات مفتشي البلدية مايجعله يعتزل عمله ويلوذ براحة البطالة ، وحالما ان استوعب فكرة زامل طالب في الحال ان يخصص له معونة مناسبة لاستئجار دكان خشبي يبيع فيه المرطبات ويكفل لزوجته العيش الرغيد الناعم .

كان زامل وزوجته يكونان أشبه بالمجلس الحربي الذي يقوم بواجب التعبئة للمعركة الفاصلة . فالجندي الواحد قد يرجح كفة النصر .

ولكن كلما قرب موعد الاحتفال صار الشك يتسرب الى أفراد الاسرة . كانت مسألة المظهر اللائق قد استعصت على الحل فلم ير أي منهم انه قد امتلك هذا المظهر اللائق المنشود مهماخدع نفسه وتكلف الاناقة .

كانت السترات العتيقة تتهدل فوق اكتافهم والسراويل السيئة التقطيع ذات الالوان الصارخة تضيق بخصورهم والاحذية المستعملة الملأى بالمسامير تحز في كعوبهم .. وكلما خرج احدهم الى الشارع واقترب من المواطن الحافلة بعلية القوم كما يقولون ووقعت انظاره على الخدود الموردة المتعافية والاقمشة الجيدة الزاهية والقامات المرتفعة الرشيقة بقوة اللحم والفواكه والمسكرات ، اخذه القلق واليأس . فان الاحتفال لن يضم وجودها غير هاتيك الوجوه ولا أقمشة غير هاتيك الأقمشة ولاقامات غيرهاتيك القامات ، كان يخشى انيكون عرضة للهزوء والسخرية ،

وساد الاعتقاد ان هذا الاحتفال لا يشمل رهطهم الفقير البائس .

وجد زامل ان من الخير ان يضع حداً للتكهنات والاشاعات وخور العزائم ولذا فقل حمل ذات صباح جنسيات اولاده جميعاً مع جنسيته وجنسية زوجته وقصد مديرية الارشاد والتثقيف الصحي وعرضها هناك على الموظف الذي يفحص هذة الطلبات قائلاً له من غير تردد ـ نحن ثمانية عشر نفراً ويحتمل ان نبلغ التسعة عشر بعد شهر ـــ رفع اليه الموظف عينيه بغير أكتراث فادرك زامل معنى هذه النظرة غير المشجعة ، قال الموظف وهو يفحص الجنسيات ـــ اللجنة هى التي تقرر ـــ ونظره كرة اخرى كانما يود أن يقول (ان الاحتفال ليس لامثالك) والحق ان زامل خرج من لدن الموظف وهو اضعف املا وقد اصيب فى صميم كرامته .

وفي البيت هبوا عليه جميعا يستفسرون ، فاوضح لهم زامل موقف الموظف تجاهه والاستهانة التي بدت في كلماته ونظراته وكان كلهم قد جرب مثل هذه المعاملة واسوأ منها حينما يكون من الضرورة القصوى مواجهة احد ماموري الحكومة فانقسموا الى جبهتين جبهة تصر على مواصلة الجهود رغم غطرسة الموظفين وترفعهم ، ورغم الاستقراطية كلها التي مانفتأ تعلو وتتشامخ عليهم . وجبهة اخرى ترى ترك هذه المسألة العقيمة التي لن يعقبها غير الاستهزاء وعدم المبالاة . وطال النقاش واتسع ، فقدمت ابنة زامل وحرضت اخوتها على بذل الجهود وبسط حالها السيء بسبب بطالة زوجها وطموحه الى فتح حانوت خشبي بشيء من المعونة التي تأمل نوالها من الاحتفال بيوم الطفل . فاشترطت الام على ابنتها ان تعني باختها المريضة وتسقيها دواءها وتطرد عنها الذباب وتجنبها الوساخة حتى يوم الاحتفال ، وعاد الامل يداعب من جديد افراد العائلة . وماهي الا ايام معدودات حتى اتضح ان العلة التي تشكوها الطفلة فوق متناول عنايتهم ودائهم . كانت مصابة بالدفتريا فهاجمتها الحمى وطرحتها من غير حراك ثم لفظت انفاسها وماتت ، فوضع موتها حدا لكل رجاء

منتظر ، ومضى زامل الى الموظف يبلغه موت احد ابنائه الا انه لم يستلم الجنسيات بل قال انه ينتظر مولودا بعد شهر يتلافى بميلاده النقص الذي حصل في العائلة .

تركز امل العائلة كله في الوليد الجديد الذي سيلج العالم الارضي بعد شهر ، فهو وحده قادر على انتشالها من هاوية اليأس ، فلم تعد زوجة زامل تزاول عملا مضنيا شاقا ، وخلدت الى الراحة قدر الامكان وجنبت نفسها ركوب السيارات وحمل الاثقال . وكان زامل يتشمم الاخبار من رواد حديقة البهو من الخدم والكناسين ويبلغها الى زوجته . وكان اولاده جميعا يصطادون الجديد من انباء يوم الطفل وينظرون الى امهم متسائلين متى تضع هذه الام حملها الحادي والعشرون فيستريحون من عناء الوساوس . وكان معشر سكان الصرائف ينظرون الى افراد هذه العائلة الكبيرة نظرة خاصة كأناس مبتلين بواهمة تجاور الجنون قمينة بالتندر والتهكم وقال قائل منهم (ولسوف يحل اليوم الذي يركب فيه نوح واهله السفينة المنخورة فتغطس بهم عند ابواب البهو) وقال اخر (بستاني وحمال وعامل اعور في سيارة باص وجندي هارب يحمل سطلا في المقهى ، وام حمقاء تحسب نفسها موضع اهتمام الناس ، وعمال طين حفاة ، يحلم جميعهم بجائزة يوم الطفل فما اغباهم واخرقهم)

اما معنى هذا الاحتفال واهميته فقد بلغ مسامع بعضهم عن طريق الاحاديث في المقاهي المستقاة من تعليقات الجرائد ، انه تعبير عن حقوق الانسان واسعاد البشرية وتأكيد على قيمة الطفل ، ولكن واقع الحال يكذب هذه المزاعم الجرائدية ، فلا حقوق لانسان ولا اسعاد لبشرية ولا قيمة لطفل ، فليتفضل المتشككون ويرتقوا السداد . اما افراد عائلة زامل فقد عاشوا بضعة اسابيع وهم اسري مشاعر غريبة شاذة . . فلا يختصمون مع احد خشية ان يجرحوا او يقتلوا ولا يطيلون المكوث في المحلات العامة ليلا لئلا يحدث مايستوجب اعتقالهم ، كانت امهم تمعن في الراحة

ومداراة حملها ، فقد اوتى اليها من تضخم بطنها انها قد تلد توئمين فتكون العائلة قد سجلت نصرا اكاسحا مجيدا . واقترب يوم الاحتفال وهى لما تلد بعد وتحددت الفترة باسبوع فان لم تلد ضاعت الفرصة . وقبل الاحتفال بيومين وبعد منتصف الليل وضعت زوجة زامل طفلين اثنين فتهللت الوجوه وتغشاها الفرح . وفي الصباح هرع زامل الى الموظف واعلن اه بسرور بالغ ان عدد أفراد الاسرة قد بلغ تسعة عشر ، ولكن الموظف اعتذر عن التسجيل لان العوائل الكبيرة قد عينت كلها وليس ثمة مجال لاى تعديل . الا ان زآمل واولاده وزوجته لم ييأسوا فقدموا العرائض والتمسوا وتوسلوا وخرجوا جميعا يجوسون دوائر الحكومة ويبسطون شكايتهم حتى خصصت لهم البلدية منحة صغيرة غطت بالكاد النفقات التي انفقوها من اجل يوم الطفل ولم يكلف اى منهم ان يحضر الاحتفال الكبير الذي يستوجب الظهور بالمظهر اللائق .

✵ ✵ ✵

خبز الحكومة

كانت ضوضاء القباقيب قد شرعت تتصادى في ارجاء الزقاق وهي ايذان بافتتاح نهار جديد في حي الفقراء . وكما تدعو الاجراس المؤمنين الصالحين لحضور قداس الفجر ، كذلك ضوضاء القباقيب تدعو الجياع الى التماس دكان الخباز . يرادف هذه الضوضاء همهمات وشهقات وعمليات نزع النعاس عن العيون والمبادرة بخفة عمال المناجم المسودين بالفحم عندما تصفر الصافرة ايذاناً بهبوط المصعد الى اعمق اعماق الارض .

واول من يذكي حماس هذه الضوضاء ويعلنها اذاعة رنانة مدوية في ارجاء الزقاق هي حمودة الارملة المرحة ذات الاولاد الثمانية التي تحترف غسل الملابس في مدرسة البنات الداخلية . كان خبز الحكومة لها بمثابة المن والسلوى اللذين أنزلهما الله تعالى على بني اسرائيل الجاحدين

والمشقة . . . هل يمكن طيها في كتاب ونسيانها . عند حمودة الخبر اليقين كما كان عند جهينة في الجاهلية . هي تعرف اكداس النسوة النصف المغمضات، وهي تعرف زمهرير الصباح وكيف ينفذ الى اعمق اعماق العظام ، وهي تعرف زمجرة الشرطي الذي يتمتع بكامل حريته ومطلق ارادته ان يبسط الرزق لمن يشاء ويمنع الرزق عمن يشاء وان يقدم ويؤجل في جوع الجياع ساعة او ساعتين

كانت حمودة ارملة ، ولنضرب عنها صفحا فلسنا نريد بسط حكاية الارامل فانهن منذ الخليقة مكروبات حزينات يعانين الغصاصة والذل ولم يعدم عقلا اولئك اللذين ابتدعوا دفنها حية الى جوار زوجها المتوفى ، ان حمودة تخدمنا في هذا

المجال باعتبارها اول من يعلن الحرب على المجاعة فى الفجر الابلج الوضاح فيخف من ورائها جحفل الصباح الجائع (لدك دكان الخباز)

كانت الاخرى تسمى مهيبة أو هيوبة ارق وافتن وادرج على اللسان كما يدعوها زوجها اسماعيل ، كانت هي الاخرى تستجيب لبوق الحرب وتعد لها العدة ولكن كثيراً مايسرقها النعاس ويختلس نعمة السمع من اذنيها . اما اسماعيل الذي يلتوي فى فراشه بردا ، فلا يمكن ان تغشه ظلمة او تخدعه ضوضاء قبقاب حتى وان كان غير قبقاب حمودة

تنهد اسماعيل ولكز مهيبة لكزة رفيقة بمرفق ذراعه فلم تجبه بشيء ، فعاود الكرة فاطلقت هذه المرة زفرة خافتة كالتي يطلقها السكران الذي اودت الخمرة بكامل حواسه . صاح بها محذرا ـــ هيوبة الخبز ـ. ففتحت عينيها ورددت مذعورة ـ الخبز ـ اجاب اسماعيل نعم الخبز هل تحسبين الامر هين الى هذا الحد ـ كانت اللحظات التي تتعاقب فى مخيلة اسماعيل هي اللحظات التي تسبق غرق الغريق . هتف بها فى غضب ـ الخبز مابالك اليوم لاتفهمين ـ اجابت مهيبة فى صراحة يشوبها الاسى والاسف ـ اسمح لي اليوم انا مريضة اشكو وعكة فى بطني ورأسي يدور .

تمثل لاسماعيل فى الحال الزقاق الطويل كله ، ومغادرة الفراش الذي بلغ ذروة دفئه بعد ساعات الليل الطويلة المثقلة بالانفاس الساخنة ، ثم زج نفسه في معترك النساء المتدثرات بالاصواف المستهلكة ، انه لايطيق شيئاً حيال سلاطة السنتهن ، وثمة الشرطي المهدد بالعصا . كل هذه الصورة القاتمة توحي لاسماعيل ايحاء لايمكن اغفاله ، انه مع التماس خبز الحكومة يفقد البعض من رجولته . ولكنه الخبز الشيء الذي يفتك بالقنبلة الذرية ويحيلها الى رماد ويستهزيء امر استهزاء باولئك المقيمين للمآدب والناحرين للخراف والمهرقين لاباريق الشراب . نعم لقد كان ديناميتا غير مرة عبر التاريخ .

تزمل اسماعيل بمعطف عسكري سميك ذي جيوب واسعة فاصطدمت يده في احد الجيوب بورقة ضخمة فأخرجها بعناية متمتماً في رفق ـ « العريضة كان يمكن ان تدعك شر دعك بالخبز » ثم رفعها الى رف يقوم في جانب الغرفة وحفظها هناك ريثما يعود من دكان الخباز ، ثم اعتمر لمة صوف تصد الهواء عن قحف الرأس ولبس جوربه وحذاءه

ولما هم ان يخرج قال لمهيبة ناصحا ـ انتبهي الى الاولاد ولا تدعي احدا يبكي ـ ولاجل ان يكسب اوامره شكلها الصارم ، تقدم الى مهيبة وهز منكبها وقال ، ـ انني ذاهب الى الخبز ـ فاومأت برأسها متفهمة

وعند الخباز خاض اسماعيل حرب المهانة مع جحفل الصباح الجائع . كان الليل لازال يعتكر والنجوم اللؤلؤية لازالت ترتعش اشبه بالذبالات وآوت الكلاب العاوية تحت دكان الجزارين واتقدت بعض النيران فى المنعطفات المسقوفة وتقدم للدفء العسس والمشردون واولئك النفر الغامض الذي ينبثق من حيث لايدري احد

واخيراً لاآخراً يسرت العناية الالهية ان ينال اسماعيل كفافه من الخبز اليومي فملاء به جيوبه الواسعة وعاد متسارع الخطو ، واذ مابلغ البيت اتجه مباشرة الى السرير ليعاود نومه . كانت مهيبة قد استيقظت على بكاء الابن الصغير فنهضت عن السرير نصف نهضة وانحنت الى وجهه وراحت ترضعه بثديها الصغير الناحل . كان الحليب قد اتخذ شاكلة الخبز ، فهو الاخر يعز تدراره ويندر نيله . لقد كتب على الاطفال ان يعانوا الشح كما يعانيه الكبار

قال اسماعيل ـ ليس لديك حليب كاف ، اي طعام يمكن ان يطعم هذا الطفل تنهدت مهيبة ـ من اين يأتيني الحليب . من يصنعه لي لا لحم ولا رز ، لم نذق شيئاً منهما منذ اسبوعين . هل تحسب ان الشاي يضع في ثدي الام حليباً

استوعب اسماعيل هذه الحقيقة وصمت ، الا ان رأسه واصل التأمل . نعم كان يجب الا ينجب هذا الولد ، ليس ثمة حاجة اليه انه ولد مع ارتفاع اسعار اللحم والسمن والرز وحتى البطاطا والباقلاء ، هذه رزيئة وبادرة سوء ، ولكنه قد ولد وقد ادخل السجن مع الداخلين واقفلت من دونه الابواب وادرج اسمه في سجلات السجان

قال اسماعيل يحدث زوجته ـ من الافضل ان اكون في الوزارة في ابكر وقت مستطاع . بعضهم يتقدمني كثيراً ويخلفني وراءه فانتظر دوري ساعتين من الزمن

سألت مهيبة ـ اليست الابواب مشرعة فتدخلونها بسلام ؟

تنهد اسماعيل ـ كلا ليست مشرعة او بالاحرى مفتوحة حسب النظام . نصطف جميعاً واحداً بعد واحد في صف طويل جداً اشبه بالقطار ثم يسمح لنا بالمرور ، ويتحتم على اولئك الذين يتقدمون الصف ان يحرصوا على اماكنهم فلا يدعوا ثغرة ينفذ منها متسلل ويضع نفسه حيث يشاء . . انهم يتحاضنون المتأخر يحتضن المتقدم ويشده اليه ويتقدم الصف كله تقدماً وئيداً . وعند الباب يسألون المراجع ويستفسرون منه وينظرون الى هويته واوراقه ـ كانت مراجعات اسماعيل للوزارة بخصوص مطالبته بمبلغ صغير من المال ، حيث كان جندياً خدم عشر سنين وبسبب من فقدانه النور في احدى عينيه فقد كلف بالخدمة المدنية كأن يمسح الافنية ويشذب الاشجار ويعمل كمراسل لرؤسائه .

تأهب اسماعيل لمغادرة البيت فألقت عليه مهيبة نظرة فاحصة تلقيها الزوجات عادة على ازواجهن قبل مبارحتهم البيت ، كأنما يفحصن مقدار الاهتمام الذي سيولينه اليه المارة في الطرقات ، وخطر لها خاطر عجيب انه بعد حين سيكون مضغوطاً بين رجلين يحصرانه كجانبي الكلابة ولعلهما يسويان أعوجاج ظهره

ويرفعان عنقه إلى مكانه الموزون بين الكتفين ، ولم يتذكر أي منهما ان العريضة لا زالت على الرف . حينما وصـــل الوزارة كان الصف قد امتد الى دائرة اسالة الماء وانحرف يساراً الى الجدار المحاذي لما كان يسمى بمدرسة المأمونية . ان عـــدد الواقفين يتجاوز المائة وجلهم فلاحون نازحون من المدن ، وعمال عاطلون ، وغمار كادح لايستبين المرء حقيقتهم ، يحملون عرائضهم بأيديهم أو هي مطوية في عبوبهم وهنا انصعق اسماعيل لقد نسي العريضة في البيـت . انها في الوزارة بمثابة صـك الدخول وجواز المرور ومفتاح الابواب . عض ابهامه غيظا وتسمر في مكانه عابساً مقطب السحنة يلعن الخبز الذي شغله ايما اشغال وصرفه عن استذكار عريضته ٠ عليه أما ان يعود الى البيت ويحملها معه ، وهذه العملية تستغـرق ساعتـين واما ان يلتجيء الى كاتب عرائض فيكتب اليه سواها . وهذه العملية تكبده مائة فلـــس٠ جمجم اسماعيل ـ خبز الحكومة ٠ اجل هو السبب ٠

هكذا يعيش

كان صباحا مشرقا بشمس ايلول الدافئة . وفي الجو لفحات من تباشير الشتاء قد تجرأت على غير عادتها في كل سنة فلفت الهواء بقرصة محببة من البرد الـــذي طال انتظاره على الناس .

كانت الحركة في باب المعظم قد بلغت مداها • فحافلات الباص تتهادى في ابهة وخيلاء مدهونة مطلية تلتمع قبضاتـها النيكلية البيضاء والسـواق في غرفهم الصغيرة منحنين على عجلة القيادة يستقبلون يومهم الجديد بفتور واعتياد وزرافات من الموظفين الصغار يحثون الخطى في كل مكان ، اذ الساعة قد اشرفت على الثامنة وسرعان ما ترفع سجلات التوقيع .

ومن هناك طريق المستشفى تدب على ارصفته جماعات من النساء فيعباءات سود خشنة ونعالات جرارة تتمسح كعوبها بالارض والبعض المتسولين والمقعدين قد انطلقوا مع الفجر واحتلوا مواضعهم على الطريق . اثنان او ثلاثة منهم يرتلون القرآن بنبرة سريعة آلية . وعلى الجانب الآخرتنهض قاعة الشعبفي شموخ ورزانة وقد عجت على مسرحها ليلة امس احدى الفرق المسرحية •

كان يوم سبت وقليل من الجرائد منشور على الارض ، جلس وراءها باعة صبيان ينادون عليها ويسمكونها من مداعبات الريح • تقدم السيد كمال الديواني والقى نظرة متعبة على ماحوله وتسمر فى اصرار لدى احدالباعة بطوله الذي يحسده عليه الاقزام وراح يتأمل في العناوين العريضة التي تتوج واجهات الجرائد . لم يرحب بهالصبي ولم يلق اليه بالا • كانيعرففيه زبونا يقرأ ولا يدفع ثمن مايقرأه

يتفحص الجرائد جميعها حتى يقع على ضالته مسجلا بين اونة واخرى بعض الكلمات على دفتر صغير وسخ ثم يعيدها جميعا سالمة نظيفة وينصرف . لم يزجره اي من هؤلاء الباعة ولم يحل بينه وبين مطالعة الجرائد . كان البعض يرهبه اذ يبدو وحشا فظا والاخر يشفق عليه وقليل جدا من ينظر الى الامر كضريبة لابد منها .

وقف في ترنح دائم قد اثقلت الخمرة رأسه من فرط ما احتسى طيلة ليلة امس حتى غاب عن وعيه واستلقى نائما في الوحل . مسح جبينه بكم سترته وفرك عينيه وتطلع حواليه في ضجر . لو كان معه درهم واحد لاغناه عن الخروج في الصباح والتماس هذا الرزق الذي لا يتشرف به انسان ولكنه من غير درهم بل ومن غير فلس واحد . كل شيء نفذ من جيبه وتحول الى كؤوس مترعة بماء الصابون الرصاصي العميق احتساها في نهم كما تحتسي البالوعة مياه المطر .

همهم في استياء بعد ان فرغ من استطلاع الجريدة الاولى - الم يمت احد ليلة أمس - ثم أمتدت أصابعه الكثة الشعر الى جريدة أخرى . فمر مسرعاً على اخبارها المحلية كما تمر الطيارة على معالم قرية صغيرة فلم يعثر على شيء ذي غناء فتجهم وجهه وتريد - تمتم في حنق - ألم يمت مخلوق . الكل ينعمون بالعافية - حلق بناظريه الى السماء . كانت رائعة زرقاء تتالق بضياء الشمس . عبس لها وخفض رأسه . لم تعد روعة السماء وضياء الشمس ذات معنى في نفسه . نظر صوب المستشفى فأبصر بتابوت من الخشب الابيض تنقله أحدى السيارات . ومرقت من أمامه سيارة اخرى تحمل على سطحها تابوتا اتت به من الطب العدلي . اكتآب كمال وخاطب نفسه في مرارة - هاه هؤلاء يموتون أي نفع لي في موتهم .

بحث في كل أطراف الجرائد فلم يعثر الى رحمة ربه - وفاة - في ذمة الخلود - هو الباقي - أو سواها من الاستعمالات الانتقالية الى العالم الاخر . لعن الدنيا كلها احياءها وأمواتها ومرضاها وأصحاءها والمنطرحين على محفات الاسعاف والمتسلقين

في خزانات الطب العدلي .

الجوع يدق طبوله في جوفه وصداع الرأس وانهيار الاعصاب والحاجة الملحة الى النوم جعلت جميعاً من عينيه ثقبين خامدين كليلين مغطيين بأجفان ذابلة متورمة لا تأتمر بأمر أحد . خاطب نفسه في غيظ متزايد ـ يبدو أن أرواح الناس قد غدت جد عزيزة اليوم ولم تفلح أساليب عزرائيل في اقتناصها ـ عرج مضطراً على أخبار المعينين والمرفعين والمنقولين الى مناصب اعلى من موظفي الدولة . يبدأ بكبار القوم وينتهي الى المكتبة والرزامين . حملق في سرور « ترفيع موظف » قرأ الخبر التالي ـ رفع السيد سعدي حمودي في مديرية « م » من ١٢ الى ١٥ ـ هذا يكفي لنفقات الفطور ـ هتف كمال في أنشراح .

حياته كحياة الحداة الجبانة لا تقتل ولا تستعدي انما تقتات على ما يميته غيرها . فان لم تجد غزالا نافقاً عرجت على الطير وان عز عليها الطير أكتفت بالجرذ والقنفذ والعصفور . أتجه نحو مديرية « م » في غير أمهال يرن في أذنيه أسم سعدي كما ترن أجراس الخلاص .

حذاؤه بلا كعب ، متهرىء بال من غير شريط يمسكه بالقدم . تتدلى فوقه وعلى أرتفاع عدة سنتيمترات نهايتا سرواله المدورتان اشبه بأنبوبي مدخنة وفوق هذا السروال سترة بائسة قد اتكأت في تداع على منكبيه وعنقه وما من شيء على ظهر البسيطة يماثلها في قدمها وتهرؤها .

لم يدبر في ذهنه أية خطة ـ للهجوم ـ بل ولم يحسب ان ثمة مانعاً يحول دون النصر فليكن غريمه شحيحاً مقتراً سمجا وليكن عربيداً سفيهاً مملقاً فالامر كله سواء . أنه يسوق قدميه بأطمئنان وثقة كطبيب مدعو الى عيادة مريض في اعظم حاجة الى طبه وعلاجه . وجد حضرة الموظف المرفع يجلس الى منضدة صغيرة حافلة بالاضابير الخضراء قد دس رأسه في كومة من الاوراق ينفخ فيها في حنق

ثبت كمال فيه عينيه · كان فى وسط العمر كليل البصر رث الهندام من اولئك القدامى الذين خدموا في ظل حكومتين عثمانية وعربية · لم يكن له عهد بكمال الديواني ولا بأساليبه ـ دلف اليه باعتزاز فوقعت انظار الكتبة على لحيته الفاحمة وهيئته الزرية الباعثة على القرف والريبة · حيا غريمه في صوت أجش سقط مصدوعاً عميقاً مبالغ في جرسه المؤثر ·

ـ تهانينا يا أستاذ بترفيعكم الذي تستحقونه عن جدارة ولياقة · دمتم من موظف نزيه ،أرجولكم أطراد التوفيق ـ ثم تنحنح فى مكانه مستعيداً انفاسه المبهورة ·

لم يجب سعدي بل تأمله بنظرة متضـايقة تعبة فوجد كمال ان من المناسب أن يزيد ويوضح فأردف بلهجة ملاطفة رقيقة ـ وجدتها فرصة يا أستاذ سعدي ·· وكما ترى أنني ·· أرجو أريحيتكم .. كنت ذات يوم موظفاً أخدم الثقافة والعلم .. لاداع للتفاصيل أرجو لطفكم .

سأل سعدي ـ الى أي راتب انني ترفعت . هل تدري ؟

اجاب كمال فى مسكنة ـ كلها خير وبركة .. ليس المهم الكمية انما التقدير

تنهد سعدي ـ التقدير نعم ياله من تقدير عظيم، يأتيك بعد عشر سنوات خدمة مضنية الى هذه المنضدة · ان اترابي تقدمونى يا اخى بشوط بعيد وغدوا مدراء ومفتشين ـ فتذكر الديواني بيتاً مناسباً للمقام ، بيتاً يحفظه من زمان قال بنبرة واضحة شاعرية ..

تقدمتني أنـاس كان شوطهم وراء خطوى لو امشي على مهل

انبسطت أسارير سعدي ولاح الرضا في محياه ،هتف أحد الكتبة ـ انك لتستحق ـ وعاد يرتل البيت العتيد في استحسان .

قال سعدي في تأمل ـ عشر سنين بهذا الراتب وخمس وعشرين سنة خدمة أرتفعت خلالها اسعار الشاي والقهوة والبيض عشر أمثال ·

أسرع الموظف يقول في نبرة تهكم ـ اذكر هذا لاولي الامر. لاولئك الذين يمنحونك الخبز ، لا لهذا الماثل امامك ٠

همس الديواني في رجاء ـ سيدي انني جوعان

بحركة خاطفة تحركت يدان اثنتان ، نقلت الاولى مائة فلس من جيب قريب منها ووضعت الاخرى مائة فلس في جيب قريب منها كذلك ،فشكره الديواني من غير ابتسام ومضى في سبيله . وضع المائة فلس في ماكنة حياته كما يضعون الفحم في القاطرة فاشتغلت وطنطنت بضع ساعات . ابتاع شيئاً من البورك وعلبة سكائر وثقاب وأحتسى كاسين من الشاي الثقيل السيلاني في مقهى متواضع يعج بالحوذية والحمالين وراح يتشاغل بمراجعة قصائده العصماء التي أعـــدها لرثاء الناس او تهنئتهم . كانت هذه القصائد مخطوطة على ورق اسمر وسخ يعتبرها الديواني نسخاً أصلية ينقل منها الابيات المناسبة لعمر المتوفي ومكانته وعمله مع المبالغة المتجاوزة الحدود . فالصعاليك الفسول يغدون في مراثيه وتهانيه ابطالاً صناديد والمرابين الغشاشين أسياد ومقامات .

في مجالـــس العزاء . حيث يصطف عنـــد الباب خط طـــويل من السيارات وينهض عند المنعطف شرطي فارع الطول ذو بدلة بيضـاء لارشاد المعزين والسكائر الصالونية تتقد على شفاه الحزاني والمجلس بأسره قاتم حزين تتصاعد منه جمجمة وسعال والقاريء يتلو الكتاب على الدكة فاذا بكمال الديواني يقتحم المـكان غير هياب ولا وجل . يخرج قصيدته وقد خطها على ورق أبيض صقيل ويروح يتنحنح ويهز جذعه مترنماً بأبيات فاجعة لشاعر لا يعرفه أحـد ، ثم يتقدم في خشوع فيسلم القصيدة لذوي المتوفي ويقبض اجره وينصرف . اما في ذلك اليوم فلم يمت انسان ذو شأن حتى خيم عليه الظلام .

كان مساء مبهظاً على أعصاب الديواني فهو مايبرح يتلوى في الطرقات ، قد نفذ الوقود من ماكنة حياته ،يتحلب ريقه للخمر ويثقل الصحو القاسي رأسه حيث

يجعله يرى كل شيء ممسوخاً تافهاً لا غناء فيه ولا ذوق ، ليس من منـاص الا ان يقوم بتجربته الاخيرة التي تماثل الكي في علاج الاعراب . في ثلاث مرات سابقة ترك العاصمة بضع ساعات وأرتحل الى القصبات المجاورة فأمتدح بعض المدراء ورجال الادارة ونال عطاياهم .

خرج الى باب المعظم وأقترض من بائع صحف درهماً واحداً دسه في يدي سائق سيارة فحشره بين صف من المسافرين الاعراب وبعد نحو سـاعة من الهز والخض والقلقلة ،بلغ عند الغروب ناحية صغيرة تقع على الطريق، فانزوى الديواني في مقهى من القصب والحصران الى جوار فلاح عجوز زوده بكل ما يعرفه عن شخصية مدير الناحية والمشاريع الاصلاحية النافعة التي تدور في مخيلته دون ان يخطو لتحقيقها خطوة واحدة .

يؤكد المدير ان ثمة معامل تفتك بالبطاله وتميتها ومستشفيات تشكو من قلة المرضى ومدارس تشكو ندرة الجهلة الاميين .ضمن الديواني هذه المشاريع في قصيدته العصماء وجر نفسه في ثقة الى بيت المدير فلقيه يتمشى في حديقة منزله الصغيرة وعليه روب شامبر ثمين انيق .

بادرة محييا ـ دمتم من رجل ادارة لا يشق له غبار ان الناحية تلهج بمدحك وتنظر اليك نظرتها الى ملاك مخلص يقصم ظهر العوز ويسمح المرض ويزيل الجهل ـ واذا ما هم بقراءة القصيدة أمسك بيده محذراً قائلاً في مزاح بارد ـ ياكمال الديوانى لعبتك هذه لاتنطل على ،الافضل ان تقول انني شحاذ فنعطيك مانعطى للشحاذين ، اما الدجل فلا اريده .

كان مدير الناحية زميل الديوانى ايام الدراسة الابتدائية ويحفظ عنه الاعيبه ومكره وانسياقه في المسكرات ،واذ ماحصل على وظيفة معلم اطلق العنان لنفسه فصار يخمر في الليل والنهار حتى فصل وعضه الجوع وانتهى الى ما انتهى اليه من بـؤس

وتشرد فصرفه مدير الناحية من غير أن يكرمه درهماً واحداً .

لقد عاد الديواني الى بغداد محطم القوى متيبس البلعوم . قطـــع على قدميه ما يقارب ثلاثة كيلو مترات في أرض قفراء تنبح بها الكلاب وأختصم مع سائق سيارة صب عليه شتائمه لانه رفض ان ينقله مجاناً .ولم ينم ليلته تلك، فقدخاصم الوسن مقلتيه خصاماً لا هوادة فيه . وتآمرت عليه كائنات صغيرة حقيرة نهشته من كل مكان فى جسده واستشعر لاول مرة وعورة فراشه وتخشب وسادته ورثاثة قميصه ، وبرزت من الجدران من حيث لا يدري ولا يتوقع أشياء كثيرة عفنة كالحة ممقوته عملت على اثارة أعصـــابه ومضاعفة ضيقه حتى ان مراتبه كلها على ثقلها وبلاغتها عجزت عن الرثاء لحاله . الرثاء للرجل البائس المنطرح من غير قوت المعاني آلام صحوه بأشد ما يعاني الجريح لآلام جراحه ٠

عودة الى الفجور

في ليال كثيرة ، وحتى قد تكون متعاقبة ينتاب جليل القلق ويحوطه سأم بارد كثيف منهك ، فثمة نوع من الفكرات السود المزعجة تحوم حول تلافيف ذهنه مثل الفئران الخبيثة الصغيرة تريد نهش طعام هش •

في كل لحظة يهمهم بصوت خافت ويلطف بلعومه ويرسل نظراته الفاحصة المستريبة الى وجه زوجته الصغير البرونزي الذي يثير في ذهنه بصورة قاسية وجهاً بائسا لبغي في مكان مخجل •

ماهذا الذي أفكر فيه ؟ أية حماقة تراود ذهني ؟.

يحاول في جهد مستميت ان (يگشط) هذه الفكرات عن رأسه ، يحاول ان يدفعها ويصدها بكلتا يديه كما لو انها خفافيش تريد أن تلطم وجهه •

كانوا يهينونك هناك اليس كذلك ؟

يسألها في ملاطفة تخفي وراءها نوعاً ملحاً من الشك فتشيح بوجهها وتتنهد وتعيد على مسمعه عبارة واحدة طالما ترددت على شفتيها : أية حياة ، كانت أموراً مخجلة حتى ليستحي المرء ان يفكر فيها ويستحضرها في ذهنه ـ انا أفهم ـ يبدأ خليل حديثه كرجل حكيم مجرب ـ طالما دخلت بيوتاً مثلها أيام عزوبتي وأن لم أ كن ولعاً بالنساء الا ان ثمة مناسبات تفرض علي هذا النوع من المتاع . كنا نفد على البيت المريب ثلاثة او اربعة من الاصدقاء قد تعتعنا السكر وذهب برشدنا نتأرجح على الباب متسائلين في اهتمام : هل هنا امرأة جميلة مسلية . نجد دائماً من يدلنا على بضاعة مرغوبة . كان البعض منا سفيها لايطاق فهو لاينى يردد في تلذذ كلمات بذيئة

وكأنها ضرورة لازمة لهذا المكان ولم نجد نحن غضاضة من سماعها . نلقى النسـوة قاعدات على الارائك تعلو اكتافهن وجوه عديمة الحياء مصبغة بالمساحيق تطل منها اعين متورمة منهوكة بالسهر .. تفو .. باللفاجرات .

«لماذا تريدايلامي ايها العزيز »يترشح من اسنانها صوت ناعم يدندن بنغمـة حزينة ـ كانت اياماً مرعبة حقاً كايام الانسان التي يمضيها فى زنزانة ـ واسترسل جليل بلهجته الحكيمة المجربة ـياللهم الذي اورثتني اياه كآبتك الصامتة - كانت عيناك تلوحان لي كأنهما ترشحان دموعاً غير منظورة ، كنت اجدك كطائر صغير متعب ضعيف سقط بين زمرة من الغربان السفهاء :

تبتسم سميرة وتؤرجح رأسها ثم تعود فتثرثر في سذاجة ـ كنت الحظ اهتمامك بي ولكنني لم اتبين ما الذي سيعقبه ، كانت مداعباتك سليمة واساوبك رفيعاً ؛ كنت احس انني مسوقة اليك بقوة كبيرة ـ واخيراً ينتهي هذا الحديث الذي اثاره جليل ، ورغبة منها فى تبديد شكوكه المرهقة تضاعف ملاطفاتها وتمنحه المزيد من عنايتهـا وتمسح على شعره حتى يسأمها ويبعدها عن نفسه ، وسرعان مايطوق الكرى جفنيها . يداهمها النعاس وكأنها قد استنشقت كمية من مخدر قوي فتضع احد كفيها تحت خدها المضغوط بوسادة الريش فيبدو ذلك الكف كأنه قد انزل لطمة موجعة على خدها ، وساقاهامطويتان على شكل خط منكسر ، تبدو فى الفراش امرأة ضئيلة حتى ان لحم كتفيها يبدو مهلهلاً بعض الشيء ، وعندما تستغرق فى النوم وتغطـــس فى اعماقه السحيقة تزفر وتتنهد وتنفض رأسها كأنها تشهد احداثا رهيبة مفزعة تـود ان تمحوها على عجل كما تمحي الكتابة الطباشيرية .

يتساءل جليل في ذات نفسه ترى هل هي سعيدة معي ؟ الم يخطر لها ان تعود الى ذلك البيت المرعب ؟ كان حريصاً على سلوكها وقد ادى به هذا الحـرص الى مضايقتها وتعذيبها . يستقصي اخبارها ويتعرف على صديقاتها ويسألها في الحاح

ضجرعن ذهابها واوبتها ، وان لم تكن هذه التحقيقات تأخذ ايا من أشكال الزجر والتأنيب الا ان القصد منها ان لم يكن خفياً على ادراكها . كانت تشعر انها ادنى حرية من زوجات الاخرين . وانها ذات ماض ملوث وان في زوجها وسواساً يعذبه ويرهقه ، ان جليل لعلى قدر بغيض من الحساسية

ذات يوم قائظ من شهر ايلول وقبل نحو اربع سنوات فرت سميرة من بيت خالتها ، كان هذا البيت قائما في بقعة جميلة من بغداد تتجاوب في جنباته ابواق السيارات المنطلقة من شوارع كثيرة تحيط به ، وهو بيت اوربي الطراز يحتل وسطه صالون انيق مؤثث بالارائك والمشاجب وانواع المرايا المصقولة ويحط على احدى مناضده تلفزيون عاجي اللون . وقد اتخذ هذا البيت شكل قلعة حصينة مسيجة بجدار عال وفوق هذا الجدار اسلاك شائكة في علو متر ، والباب الخارجي مشبك بالحديد لا يفتح ولا يغلق الا بأمر خالتها سيدة البيت ..

كانت هذه الخالة ماكرة ضئيلة يركب وجهها انف متآكل وتطل منه عينان صغيرتان زجاجيتان خلتا من كل رونق تحدج بهما الناس والاشياء بطريقة منكرة مقززة ، فهي بمحياها المستكره المقيت وذوائب شعرها المصبغة وعينيها الباردتين الشاحبتين لتضرب أسوأ المثل لفاجرة عجوز مهتوكة اثمة .

في ذلك البيت ست من العواهر . في أشهر الصيف اللافحة يتجردن من ملابسهن خلا قميص شفاف حريري يتهدل على أكتافهن في استرخاء ، يتراقصن ويتهزهزن ويرددن أغنيات مبتذلة تنبثق مثل نافورة عامرة ثم تخبو رويداً رويداً وتتلاشى الى الابد .

في ذلك البيت الذي يشبه حصنا من الحصون يعشن اولئك النسوة حياة الفجور المنهكة . لاتقف عند تجفيف الدم من الوجنتين بل انها تسلب طراوة البشرة وتنتزع الادمية نفسها . عاشت سميرة بضعة أشهر .كان الرجال الفخورون

ذوو البشرات الصقيلة المحفوفة يتخطرون امامها مثل الديكة المهتاجة الكاسرة ، يتفرسون في وجوه البغايا بعيون نهمة وقحة كسرب من تجار المواشي يتفحصون الاغنام في السوق العامة . وفي مناسبات لاتحصى كانوا يسمحون لانفسهم دونما حياء بدغدغتهن ،وكن يتقبلن كل مضايقة بنفس رضية صابرة تقتضيها واجبات المهنة وأصولها

وعندما هربت سميرة كانت قد احتملت هذه المضايقات زمناً قصيراً فقد أصطادتها الخالة وأغوتها ووعدتها انها ستزوجها لابنها واتضح فى الاسبوع الاول أن هذا الابن قد احترف مهنة أمه وغدا ساعدها الايمن فضاعت الآمال واستكانت سميرة للقدر . تجد نفسها فى كل مرة مبطوشاً بها ومكرهة بارغام ان تستجيب لطاعة العبيد المسخرين برهبة السوط ،فتخطو الى غرفتها الصغيرة النظيفة ومن ورائها رجل لاتعرفه يهز عطفيه ويبتسم فى انتصار يلحقها الى مخدعها .

جرى بعد هروبها مع جليل تحقيق سطحي واثارة نوع من الحديث وتساءل عنها بعض الرواد الاثيرة لديهم فزعمت الخالة انها ذهبت تستجم بضعة أشهر وستعود من غير بدفاعتاد الرواد غيابها كما يعتاد الناس غياب اعز الاحبة وأقرب الاصدقاء وهكذا نسيت سميرة وخلت منها الذاكرة .

تعرف عليها جليل في ذلك البيت ، كانت خالتها قد استدعته لطلاء اثاث الغرف ، فكان في كل صباح يلج البيت ببدلة عمالية مدهنة بالاصباغ ومعه زجاجات وقطن وخرق بالية وفي يومه الرابع فاجأ سميرة في مخدعها . لقيها وحيدة مهمومة متورمة الجفون . مؤرقة قد غطست في فراشها مثل كيس صغير افرغ منه نصف محتوياته ، فتهدلت جوانبه وانثنت ، تطلعت اليه بعينها المسهدتين . كان شابا فارع القامة رشيقاً ادنى مظهره الى الرثاثة يتحرك امامها بخرق عمالية رثة ، دار الحديث بينهما عادياً من النوع الذي يتبادله الغرباء لاول مرة ، وفي اليوم الثاني امعنت

النظر الى عينيه الصافيتين البريئتين وشعره الاسود المنحدر في تسريحة جميلة عند أذنيه ومؤخر رأسه. فأنصتت الى كلماته في شغف وبهجة، انه يلوح لها أنساناً لما تتلوث روحه بعد فعرضت عليه ان يتزوجها ويفر بها فاستجاب من غيرادنى تردد.

كانت تلوح له ذلك النهار امرأة مستعبدة مهانة قد خنقت كافة أحاسيسها الانسانية، لها طلعة كئيبة مظلمة. كانت في عشية الليلة الفائتة قد نالت ضرباً مبرحا من احد الناس، لطمها على وجهها وخدش جسمها ..

أستهلت سميرة حياتها الزوجية بسعادة غامرة، فرغم ضيق اليد وقلة الاستعداد وانعدام أسباب الراحة فقد عملت منتشية فرحة على توطيد دعائم أسرة جديدة، فابتاعت طباخا ذا فتيلتين وقدرين للطبخ وآنية لغسل الملابس، واتت بالصحون والملاعق ولم يعد يمنعها ان تضع فلساً فوق الفلس لتشتري بما يتجمع لديها كوباً للشاي او ابريقاً أو قدحاً. كان هوس الاسرة يدور في دمائها كالحمى. احياناً يقسو عليها جليل فيتبادل الزوجان عبارات جافية تسقط مثل البقع الذهنية على قماش من المخمل الثمين فتأتيها بعد يوم أو بعد ساعة او يقات مفعمة بسرور عميق جارف، فتنقشع البقع الملوثة ويصفو المخمل ويغدو من جديد متألقاً جذاباً.

كانت في أيامها الاولى تتوجس خيفة من اصدقاء زوجها. أن بعضهم قد يتعرف عليها وربما يثير بعض الفضائح ويخلق الاشاعات ولعل بعضهم كان رائداً ملحاحاً لبيت خالتها فعرفها هناك. ولكن الايام الهائتة جرجرت اذيالا كثيفة على ذلك الماضي، فراح بتراخي الايام يتحلل الى مادة هلامية مائعه لايمكن ان يتعرف على شكلها انسان.

وبعد أربعة اعوام هربت سميرة مرة أخرى، خلفت وراءها سريرها وأدوات طبخها. جمعت أشياءها ذات صباح وعادت الى ذلك البيت المرعب،

في عشية الليلة الفائتةوقعت مشادة بينهما كان شيطاناً أحمق ركب رأسها فهرجت في غير ما ضرورة بلغو مختلق من نسج خيالها وبكت وأعولت بنشيج حزين كانت تردد في غمرة عبراتها انه يستحي بها ويخجل من صحبتها ، وانها بائسة لاجدوى من حياتها مع انسان لايقدرها ، فكلما زارت أحداً من اقربائه تلقاها في برود وتغافل عن ضيافتها ، تلكم السيدات بنات خالته وزوجات أخوته أذا ماظهرت في مجلسهن تهامسن عليها وتجنبنها في أصرار حتى عبارات المجاملة والترحيب تتساقط من أفواههن مكذوبة مصطنعة ، لم يكن جليل على قدر طيب من سعة الصدر كان هو الآخر مأزوما ضجراً فالعمل المرهق الطويل قد أمتص طاقته كلها وفي المساء يذوي تعباً وكلالا وينتظر في أستسلام قبض أجوره وفي المنزل تستقبله بمطاليبها . كانت هذه المطاليب تتضخم في مسمعيه فبعد ان كانت دندنة خافتة يشعرها جليل اليوم وكأنها زمجرة دائن اطيل تسويفه ونفذ صبره ، قد استقلت النهار بطوله فوق الكنبة مريحة بدنها العليل . فتطلب اليه ان يصحبها الى السينما فتقوم الى مشجب ملابسها لتتهيأ وتتزين وقدبلغ منه التعب حد الانهاك قد ترشح العرق اللزج من قدميه المضغوطين بالحذاء . يبدو انها تناست ان زوجها عامل متعب مرهق ، ولا تجد غضاضة من جره الى السينما بخرقه البالية .

يقول في ذات نفسه انها لاتقدر ظروفي ولا تدرك اي عمل شاق أمارس في ساعات النهار . كانت مهمة افهامها عسيرة ، حاول ذلك مراراً في ايام البطالة واصطنع معها ابسط الكلمات لكي تفهم وتعى وفي اليوم التالي تنسى همومه وشكاواه .

كان هروبها أمراً باعثاً للاستغراب ، في الصباح تبادلا قليلاً من عبارات الجفاء وعبس في وجهها وجلس الى فطوره صامتاً مطرقاً توشحه سحابة قاسية من من الضيق والتبرم . كان في غمرة ضجره وسأمه فأنشات تتحدث بكلام بارد ثقيل ضاعف من توتر اعصابه .. انك مللتني ياجليل لم تعد لي مكانة في بيتك تجد دائماً

من المعاذير لكى تبقيني سجينة وحيدة واسفاه قد أوشكنا على النهاية .. زوجة وأية زوجة مجرد ماكنة لغسل الملابس وطبخ الطعام . زوجات اخوتك مازلن يتجاهلنني ويحتقرنني لا أدري كيف تكون التوبة ممكنة امام الساقطات » .

ممكنة ممكنة ـ هكذا اجابها وهو يحتدم غيظاً واهتياجاً وقد اتسعت عيناه واستدارتا صارمتين قاسيتين وتابع يقول « انكن معشر فاسد موحل تعجز مياة البحار كلها عن غسلهن » استدرك بجرس نادم حزين ـ كلا هذا ايضاً غير صحيح والحق أنكن ضحايا مغرورات مخدوعات ، بينا انا عامل بسيط معرض للبطالة وقلة الرزق والعوز والعاهات وسواها ، فرغم انني اصنع اشياء جميلة قوية يتباهى بها الناس فهم لا يعرفونني ويابون ان يجلسوا الى جواري في السيارة خشية ان تلوث اسمالي الوسخة ملابسهم الثمينة وانك انت شيء زهيد مرذول مخلوقة تائهة ضيقة الفكر عديمة الشعور واقعة في خلب الحياة البراقة . همك الفساتين وأرتياد السينمات وهذا مالا طاقة لي به ، فكري ملياً واتخذي لنفسك أي سبيل مناسب .

فقالت سمير وكأنها تناجى نفسها او تداعب لعبتها وتعاتبها ـ سبيل مناسب كنت اقول انني قد وجدت السبيل المناسب في حياتي معك . تلك كانت امنيتي وأحلامي اواه .. أواه لم افكر كفاية ذلك كان كل السبب ـ شكم غضبه وأجاب في غير مبالاة ـ افعلي ما يحلو لك لا اقف في سبيلك ، ان كان ثمة سعادة ترجينها في غير هذا المكان فليس في نيتي ان أحرمك اياها .

« انت تريد هذا انا أفهم » أجابت في يأس وأسف

أمتعض لكلماتها الثقيلة الشائكة ، كانت تخترق جمجمته وترسو هناك مثل قطع صغيرة مدببة من الرصاص ، عندما وقع قدميه خارج المنزل لم يتغير شيء من

محياه الحزين العابس قال يحدث نفسه ، ان شاءت ان تذهب فلتذهب ولكن الى اين ، لذلك البيت المرعب ، هذا مستحيل ويجب ان يكون مستحيل ..

فى ساعات عمله الطويلة تراوده خواطر شتى ، كان يتمهل بين الدقائق المتسارعة ويطرق مفكراً كمن غمرته موجة من الذهول •

انها لن تفعل كان الامر مجرد عتاب ليس غير -امام ناظريه تتهادى العربات المتصدعة المعطوبة مشدودة بها خيول ظالعة هزيلة تطقطق بعجلاتها على الاسفلت المهشم المحفور ، يرفع اليها باصريته ويرمق الجالسين متفحصاً وجوههم يتساءل فى دهشة - لم انا افعل كل هذا ، انها لن نعود لبيت خالتها لن تعود لن تعود .: فثمة شعور لطيف محبب يستيقظ في أعماق كينونته ،نوع من الزمالة ربطته بذلك المخلوق الساذج البريء المغرور الذي يشغل باله في هذه اللحظات •

في تلك الليلة قام بجولة قصيرة في انحاء االدينة وعاد الى منزله في نحو الساعة التاسعة . كان السكون يخيم على الدرب الضيق والجدران الشاهقة المعوجة تنهض امام عينيه كاسوار قلعة رهيبة وقد غمر الظلام كل شيء . تطلع الى نافذة غرفته . كان سكونها اعمق من سكون الطريق ولم تكن فيها سميرة بل لم تكن تلك الغرفة الدافئة الاثيرة لديه بل خربة باردة موحشة. لقد هربت ، ان مجرد تصور بيت خالتها يثير في نفسه أحساساً لايقاوم من الاسى . . اواه ياللعار والشناعه .

وفي اليوم التالي وحالما انتصف النهار قصدجليل البيت المرعب الذي انتشل منه قبل أربع سنوات مخلوقة ساقطة كئيبة . وجد سميرة بين جوقة من صويحباتها يغمرهن مرح كاذب تتطلع حولها بعينين باهتتين ذاهلتين تمتم « أن تكون عاهرة فغير ناجحة » ، برزت خالتها وصاحت مغضبة « انظروا هاهو قد جاء هذا الذي ظلمك واغتصبك واذاقك الهوان هذا الذي تآمر عليك واراد ان يقبرك . تأملي وجهه جاء

مستخذيه متوسلا يريد لنفسه أمرأة ليسجنها ويعذبها ويحرم عليها المسرات ٠»

ودهش خليل اذ خرج له من اقصى البيت رجال أشداء يعملون في البيت أقبلوا عليه مهددين كما لو انهم انفقوا على سحقة وتهشيمه ، فأنسل هارباً وقلبـــه مفعم بالاسى ، وفي المساء الاغبش التقى جليل عرضا بأحدهم . كان لقيه فى ظهيرة ذلك اليوم في منزل خالتها ، وكان رجلا احدب مرتجف الذقن يترصد الرجال في ناصية الشارع برأس مطرق، وعينين محاذرتين قد حشا كلتا يديه في جيب سرواله .

وانحنى جسده الطويل الى الامام . انتهز جليل فرصة تحدثه مع ثلاثة من الشبان المهنــدمين ، ودنا نحوهم وأنصت الى حديثهم. كان هو الذي يتحدث قال « انها سميرة الا تعرفونها هربت منا قبل أربع سنوات. وعادت أمس.. جميلة رائعة ..

هتف أحدهم : «عظيم جداً هذا ما نبحث عنه هيا دلنا اليها » فمشى وتبعه الثلاثة الآخرون وتسمر جليل في مكانه يتأثرهم بعينيه الدامعتين صاح في يأس .. « سميرة سميرة وشق طريقه في الظلام »٠٠

في الحانة

كان السيد فهمي يحتسي خمرته في حـانته المفضلة الصغيرة الغاصة بعدد متباين من الناس والتي يديرها منصور الشاب الاسمر ذو العينين الجاحظتين .

كانت قد مضت عليه ثلاث أعوام منذ ان سرح من خدمة الدولة وزود بدفتر تقاعد صغير أحمر أعتاد أن يدسه فى جيب سترته الداخلي ويتفحصه عدة مرات فى اليوم الواحد .

لقد غدا يهرم ، ليس فقط بالتناقص في عدد اسنانه ، بل أن خديه صارا أعمق غورا مما كانا من قبل وتدبب حنكه واستطال واشتغل رأسه بشيب فضى كما أن مشيته غدت مرتجة رخوة .

انه يقيم في هذه الايام في بيت امرأة عجوز يقع في نهاية زقاق طويل معتم حيث يحتل غرفة فى الطابق العلوي صقيلة الارض نظيفة مرتبة ذات نوافذ تفتح الى الاعلى مزججة عند السقف بضروب الزجاج الملون الصغير الذي كان يزين به البيوت ايام ولاية ناظم باشا . ان مثل هذه البيوت كان تحفة في زخرفتها ، يسكنها وجهاء بغداد وتجارها وقد غدت اليوم مهجورة عتيقة يؤجرها المعوزون ويقيمون في ارجائها في تزاحم واحتشاد . كان فهمى يقيم قبل هـــذا البيت في بيت آخر مثله اتت على رأسه مقصلة الهدم فقوضته من اساسه وانشيء مكانه شارع عريض فسيح بعد ان احتمل ازيز الرافعات المتواصل في الليل والنهار طيلة عدة أشهر . لكم كانت تلك الماكنة الهادرة تزعج اذنيه . لقد تقوض البيت وجمع حجارته الصالحة رجل حاف ونقله فوق دابة الى مكان بعيد ليبني بها مأواه الصغير .

ليست معه زوجة الآن ولم يشأ ان يتحدث عن زوجته ولا يطيق سماع أخبارها ، ان ذلك سيكون قميناً بجرح عواطف الرجل المتقاعد الذي يحتسي خمرته في طمأنينة و دعة . ليس من الخير ان يذكره انسان بفتحية لقد مضت الى غير رجعة . مضت مع رجل مصطحبة معها طفلته وداد . نعم الزوجة والطفلة كلتاهما هجرتاه في يوم واحد وأبقياه وحيداً متعباً قليل الحول .

كانت امامه كأس قد ذهب معظم خمرها وخلت الصحون من الكثير الذي كانت تزهو به من طعام ومزة وانه يصيخ السمع فى الدقائق الاخيرة من سهرته الى صوت يتغنى به صاحبه :

هجرتك حتى قيل لا يعرف القلى وزرتك حتى قيل ليس له صبر .

كان الصوت يرد اليه من زاوية أخرى من الحانة من حشد حاشد من من الشباب العابث الطافح ضجيجاً وعربدة .. كان بعضهم يؤرجح رأسه ويصفق ان أكبر الجالسين سناً لم يبلغ بعد نصف عمر فهمي .

كان يود ان يتخفف من همومه ، كأن ينسى فتحية وابنته وداد وايام سعادته الزوجية وينسى راتبه الضئيل الذي تقلص الى ما دون الثلث ، وهذا الدفتر الاحمر المدسوس في جيب سترته . انه اشبه بالقرص الذي يعلقة الجندي الى صدره فأن تجندل على الارض كان القرص بمثابة المرشد الى اسمه ورقمه وهويته . شيء غيرمستحب يذكر بالموت وقرب الاجل. كان يتنهد بعض الاحيان ويتلفت باحتراس ويدرس امائر الشاربين كأنه يود ان يعثر على صاحب ملائم يباسطه الحديث . وليس في هذا مايسوء احد فالصداقات في الحانة الرخيصة تنشأ من غير تعقيد ولا مقدمات فقد يتصل الحديث ويدور النقاش وتتشاجن الحكايات وتروي الانباء وتفتضح الاسرار بين شارب في الشمال وشارب في الجنوب في طبيعة تامة ، ولكن السيد فهمي لم يلق ضالته . كان الشاربون جميعاً متلاحمين فيما بينهم ، يتحدثون في حمية وحرارة .

برزت على ارض الحانة الطفلة سناء وهي شحاذة بائسة في العاشرة من عمرها بيضاء شمعية اللون كأنها تشكو داءاً . تلف رأسها بطرحة صوفية حمراء تبرز من جوانبها خصلات من شعرها الذهبي الذي تعوزه النظافة كانت بلا نعلين وثوبها مهلهل حتى ان الاصبع الواحد لينفذ من بعض ثقوبه . تداني فهمي نحو حافة المائدة حتى اتكأ بها مرفقيه ثم انشأ يصفق بيدين نحيلتين تلطم احداهما الاخرى لطمات غير موفقة وصماء احياناً حتى فطنت اليه الطفلة وتبسمت بسرور هتف فهمي . . سناء اقتربي الي - فامتثلت له الطفلة مطيعة مستسلمه فبادرها بسوءالين متتالين - الست انا عمك ؟ الاتحبينني ؟ واجاب بنفسه على السؤال الاخير - نعم تحبينني ، هذا واضح وطلب اليها ان تريه كسبها فى هذا اليوم فتحت الصبية راحتها كاشفة عن نحو سبعين فلساً كلها قطع حمراء نحاسية ومسبحة بالعرق تنهد فهمي وتفرس بامعان الى وجهها الصغير المتغضن الحالم فيما كانت دمعتان كبيرتان تنحدران على حفافي عينيه قالت الصبية وكأنها تؤنبه - عدت تبكي مرة اخرى ان الناس يغنون من حولك ويضحكون - غمغم فهمي - سناء عندي ابنة فى مثل عمرك اسمها وداد فسألته سناء على الفور . اين هي ؟ اهي مثلي تستجدي في الحانة ؟ اجاب فهمي في انكار :

- كلا ليست مثلك . ولكن يا الهي لم انا اكذب ! ما ادراني ما حالها ؟ انها ليست معي في هذه الايام ، قد ذهبت مع امها في يوم واحد .

عبس محيا الشحاذة وردت مستنكرة . .

- انها لئيمه بنتك هذه ؛ تهجر اباها كيف !. وتابعت متحسرة لكم اتمنى ان يكون لى والد !. فاستطرد فهمي يقول بجرس خافت كأنه الهمس - كانت جميله مثلك بيضاء متوردة الوجنتين لها مثل هذا الشعر الذهبي - سألت الشحاذة .. هل هي حافية القدمين وثوبها ذو خرق ؟ .

اجاب فهمي في لامبالاة وقد انفغر فمه على نحو فاجع :

ـ لست ادري انني اسكر كل ليلة كيما اتذكرها ...

ولكن ما الفائدة من الذكرى انها تجعل الهم مضاعفاً . وانت ياسناء هل تحسين ان امراً ما يؤلمك اقصد هل عندك احزاناً كثيرة .؟

اجابت الصبية في ثقة ـ حزنت كثيراً فيما مضى اما اليوم فأنا منشرحة القلب فقد اعتدت الشحاذة وامل ان يكون لى مبلغ جيد بعد حين فافتتح به عملا حسنا مع والدتي وان شئت اشترك معنا ، نعتزم ان نفتح حانوتاً .

لم يبال فهمي قط بكلماتها انما استرسل يقول وكأنه يحدث نفسه ..

ـ على مقربة من هذه الحانة تقوم مدرسة للبنات الصغيرات مدرسة كبيرة محاطة بالورود والرياحين ، تقبل اليها كل صباح فتيات في مثل عمرك وعمر وداد جميلات لطيفات محتذيات نعالا انيقة وملتفات بالفرو والاصواف ، اواه ما انا فاعلة .. اصنع هموماً اخرى لهذه البائسة . اشوش افكارها افسد احلامها . سوف يكون لك ياسناء حانوتا فخما اشبه بالمغازة العامرة فيه اللعب والاقمشة والاحذية ، ولسوف تجلسين وراء المكتب وتطوين الدنانير وتضعينها بالجرارة .. ولسوف تكونين اغنى اغنياء الارض فيهتف الناس ما اعظم سناء !.

اجابت سناء في حلم ـ نعم سوف لا يذكر احد ان سناء كانت ذات يوم شحاذة ولااريدك ان تقول لاحد ابدا فتجعلني اخجل .عدنى ان لاتقول لاحد .

فاكد لها فهمي في عزم ـ لن اقول مطلقا .

وعاد يواصل حكايته ... كنت اتمنى ان تكون وداد مع هاتيك الفتيات وانت ايضا ياسناء انني اتطلع اليهن احيانا بل في كل صباح ومساء لقد غدت هذه هوايتي الوحيدة منذ ان اقعدونى . واذا ماأنهى حديثه الطويل الشجي احنى راسه واطبق عينيه فبدا كانسان قد نام فتسللت سناء ومضت تلتمس الصدقة من الحشد الحاشد

الذي كان ضجيجه يصم الاذان فاستفاق فهمي بغتة على صرخة حادة اطلقتها سناء . فتح عينيه وشخص يبصره الى سناء وجدها محتجزة بين جسدين بدينين مخمورين يحاصرها اربع ايدي شقية عابثة راحت تعتصر بطنها وصدرها وان احدهم قد رفع بوزه محاولا ان يلثم شفتيها فيما اطلق الأخر ضحكا داعرا مقيتا كانت هي تهمهم في هلع وتحاول الفكاك فتسف بجسـدها الى ادنى وتنتفض صاعدة . وما اسرع ما رفع فهمي عينيه الفارغتين المجردتين من ايما بريق فوحه سناء الحبيبة قد وقعت في قبضة الوحوش فنهض في الحال ملقياً كرسيه الى الوراء صائحاً في غيض واستنكار ـ ما الذي تفعلونه بالطفله ايها السفهاء ـ واندفع نحوهم في غير تحكم ولا اتزان قمين في اي لحظه ان يعثر ويتهاوا الى الارض وقبل ان يبلغ سناء لكزه احدهم بكوعه في الصدر فترنح قليلا وانطرح على قفاه فرفع الآخر كأسـه ورشه على وجه فهمي فنفذ بعض الخمر الى فمه المفتوح وبلل شاربيه حتى ان عينيه دمعتا وارسل عطسة ضخمه ثم شرع يحرك ساقيه حركات خرقاء ليسـتعيد بهما وضعه المنتصب فاختل نظام الحانة . وقهقه بعض الشـاربين بينما احتقن الدم في عين الآخرين وبدت بوادر العراك تذر قرنها فمضى منصور الى الباب الجارجي ونادى شرطيين حازمين فتقدما عبر الحانة وانتهيا الى فهمي ورفعاه عن الارض واستقاه امامهما مضطرب الهندام مبلل الوجه بالعرق · فخرجت سناء من ورائه معولة صارخة ـ عمي فهمي عمي فهمي ـ وقد رفعت كفها الى السماء فيما كانت اصابعها القوية الصغيرة تضغط على كسبها الذي نالته فى ذلك اليوم .

الاب والابن

كانت المرأة المرذولة تضطجع على سرير حديدي يعلوه فراش رقيق تعوزه النظافة حيث تقوم عند رأسه وسادتان مجعدتان مبعوجتان .

كانت عفيفة تحيا في وجرها المعتم المقبض لاشد النفوس مرحا وصفاء والمزين على نحو لايمت للذوق باية صلة بصور ورقية منتزعة من مجلات تمثل نساء لايشبهنها مطلقاً . يتخطرن بالمايوهات على سواحل البحر . ان بينها وبينهن مدى شاسع قد لاينقص عن مدى البحر الذي يستحمن به .

تملك المرأة في غرفتها منضدة ذات جرارات قد وضعت فوقها اشياء زينتها . فثمه مكحلة لتسويد الجفون وعلبة دهان وبودرة رخيصة وعلاجات عطارية من شتى الاشكال .

كان النهار قد تقدم وهو نهار شتوي قارص البرد جررت عليه الشمس الواهنة خيوطاً صفراء ذابلة . تلمست المرأة خشية فراشها فلم تقع على الجسد الاخر الذي كان مضطعا الى جوارها طوال الليل . انه قد انصرف كما يجدر بكل زبون محترم ان ينصرف قبل ان تطلع عليه الشمس

في الزقاق الذي تطل عليه نوافذ غرفتها هرج كثير ، فهناك الرجال انفسهم يدبون دبيب الحشرات من انبلاج الفجر حتى منتصف الليل . انهم يتدافعون ويهدرون منقبين فى ارجاء المزبلة عن عظمة تكسوها بقية من لحم ولكن معظمهن

في مثل ذبولها وشحوبها ان الجديدات سرعان مايغدون عتيقات ، فالاحمر يستحيل الى اصفر والمشع الى مظلم والطازج الى عفن ، والحي الى متهري والطبيعي الى المصنوع ، وهكذا يدور بهن الدولاب . لقد انصرف الرجل وقد تذكرت متى انصرف ، كما تذكرت الاجر الذى دفعه لها . كان فتى وسيماً حسن الهندام من اولئك الشباب الذين يدرسون في الكليات . فاصابعه نظيفة بيضاء ووجهه املس رقيق وعيناه سوداوان تختبيان وراء اجفانهما في وداعة وطيبة فائقتين وصوته عذب صاف لما يخدشه الدخان بعد ، لا يأمل احد من الناس ان يجده في هذا المكان الموبوء . لقد تحدث اليها في الليلة الفائتة احاديث كثيرة مفعمة بالود والأحترام كالحديث الذي يتبادله الازواج مع زوجاتهم في اهنأ ساعات الحياة ولكم تعمد أن يطول مكوثه عندها . ياتيها كل مساء وينصرف كل فجر فيوفر عليها مشاهد مقززة ملأت جوانبها غيظا واذى . ولكنه يخشى أبويه . فثمة شيوخ قد تساقطت اسنانهم وخسفت اصداغهم وتقعرت خدودهم يتحدثون باصوات موصوصه كاصوات الفئران ، يزورونها كل مساء فيعتصرون جسدها كما تعتصر الثياب .

منذ عهد بعيد كانت تعيش عفيفة فى اسرة محترمة فاصابتها ضربة من القدر انزلت والدها الى القبر ثم تبعته والدتها الى ذات المصير فزوجوها اخوتها الى رجل عجوز بالغ من الدمامة في سبيل مهر معجل سطا عليه هؤلاء الاخوة ثم مات الزوج فنبذها الاخوة فتلقفتها الشوارع الرحبة والعيون الشرسة وانتهى بها المطاف الى عشرة رجل ثرى جميل اغدق عليها كثيراً من نعمته فزوجوه أهله الى امرأة من قريباته لئلا تتسرب ثروة العائلة الى الاغراب .

القت الغطاء جانبا وانتصبت وسط الغرفة تعبة مكدودة مثقلة بالنعاس . لم يكن عليها غير غلالتها ولم يكن وراء هذه الغلالة غير عظام معروقة وجلد ذابل .

تلك هي المرأة التي يتكالب عليها الرجال في الامسيات والليل ، سرعان ما عا لجت وجهها بالمساحيق فبدا اكثر امعانا في البؤس وادعى الى اثارة الشجن . ان مساحيق الامس تبددت فوق الوسادة وعلى وجنتي الفتى الوسيم الذي كان جوارها طوال الليل .

انها تعلم كما تعلم كل امرأة في هذا المكان ان حياتها قد تنتهي بالم موجع مستعص يقتلع روحها في اناة ، او ، قد يداهمها رجل يحمل خنجرا فيبقر بطنها ويمزقها .

استعادة عفيفة ذكرى ذلك الرجل الذي لاقته في مفتتح حياتها واستعادت ذكرى فتى الامس ، الاثنان يكادان يكونان متشابهين كلاهما يحمل ذات العيون الوديعة المؤانسة وكلاهما وسيم ناصع البياض ولكن يفصل بينهما نحو عشرين من الاعوام هي عمر فتى الامس ،وصاحت - ربة الدار - احضري الى الفطور يا عفيفة - كان صوتها ساخراً ذا معنى ثم اردفت بكلام آخر جعل زميلاتها الآخريات ينفجرن ضاحكات فآلمها ان تكون مدعاة لسخرية الساخرات وعبث العابثات ولكن هكذا تنتهي كل ساقطة تجوز مراحل الشباب ويذهب عنها روادها انها اقدمهن في المنزل واكبرهن سنا ومع ذلك اطاعت ربة الدار واسرعت الى السلم ملبية النداء ودلفت الى غرفة كبيرة فلقيت زميلاتها متحلقات حول النار يتناولن فطورهن بثرثرة ويتباهين بمغامرتهن في الليلة الفائتة .

ابتسمت ربة المنزل وقهقهن الزميلات لقد مضى شهران منذ ان باتت عفيفة الى جانب رجل . كان فلاحا أغبر أقبل من القرية عند منتصف الليل وكن الزميلات قد اصبن زبائن مرموقين فكانت هي من نصيب الفلاح .

حقا انها لم تتم الى جانب زبون منذ شهرين ولكن رجل الامس يزن المئات من رجال زميلاتها . وانتظرت ان يعود في الليلة التالية والليلة التي بعدها ولكنه لن يعود ولن يعود ، فتجمعن حولها الزميلات يسألنها عن خبر ذلك الفتى الوسيم فتاوهت متأسفة ـ اواه لكم يشبه الرجل الذي لقيته في مفتتح حياتي انهما اشبه بالاب والابن . . نعم الاب والابن الاب في مفتتح حياتها والابن في آخر هذه الحياة .

مؤامرة

السيد عبد الحميد او ابو نبيل، كما يحلو لاصدقائه مناداته بهذا الاسم ، شخصية لطيفة محببة . رجل سمين عظيم البطن منتفخ الخدين كأنه ينفخ دوما في بوق ، يكسو رأسه شعر اشيب حصيري قليل يضفي على الرأس كله سيما وقورة . يضايقه حر الصيف ابلغ مضايقة حتى ليجعل من ملابسه اسفنجة كبيرة ما تبرح تمتص العرق من تحت أبطيه وصدره وساقيه .

تزوج قبل عشرة اعوام من سيدة وقورة محترمه مقترة ، استطاعة بضروب افانينها في الاقتصاد ان تبني للعائلة بيتاً وتكدس في ذلك البيت اثاثا عتيقاً نظيفاً لاتكاد ترسو عليه ذرة غبار حتى تعاجلها بالنفض والمسح وله في مخدع نومه صورة تمثله في ايام عزه وشبابه . بشعره الاسود الجميل وبقسماته المتناسبة وبصدره العريض . وقد انجبت له زوجته ولداً واحداً لاسواه ولا غيره كان هو قرة العين وشهادة تنفي العقم .

كانت الدراسة الجامعية تستهويه اشد الاستهواء ، ففي مطلع شبابه نال شهادة الثانوية فسعى الى وظيفة فتوظف ، ولكن زملاءه واصحابه مضوا قدماً ، فتخرجوا اطباء في عيادات فخمة ومحامين في مكاتب رابحة وله اصحاب ذوو رتب عالية في الجيش ، بينما انكمش هو في وظيفة صغيرة متواضعة لاتناسب هيكله الوقور وثقافته المتحررة .

وفي ابان سياسة الباب المفتوح في كلية الحقوق المسائية ، نظم وثائقه واوراقه وخاض الميدان مع الخائضين فقبل تلميذاً في معهد عال حقوقي يدرس القانون ، فتشبث قوياً بهذا الفوز الذي ناله في غفلة من الزمن. وكالمرأة التي تتزوج في سن متأخرة تبالغ في تنظيم بيتها ونظافته فكذلك السيد عبد الحميد صار يبالغ مبالغة متكلفة في نظافة كتبه وحفظها وملاحقة الاساتذة بالايضاحات والاستفسارات اما زملاءوه الصغار الوافدون جديداً الى الحياة فقد اخذوا يتندرون عليه ويلمزون كرشه ورأسه الاشيب وعرض منكبيه فتقبل عبد الحميد تندرهم ولمزهم بنفس عالية منصرفاً الى دروسه وحدها . في نهاية العام رسب السيد عبدالحميد لسبب لا يعلمه غير الله وغير اولئك الاساتذة الذين تشرفوا بتصحيح دفاتر امتحانه ، فطلق الكلية وعاد الى مقهاه العتيد يقتل على مصاطبه وقتا غير ثمين .

في وقت ما كان يدعو الى الاصلاح وينادي بتحرير الوطن ويجادل بأمور السياسة ويهزأ بانتخابات المجالس ، ويطالع بين الفينة والفينة كتبا لسلامة موسى وطه حسين وراشد البراوي وكتبا اخرى تفوح منها روائح الحرية التي يزكم عبيرها انوف الحاكمين ، ثم ادرك بعد فترة طويلة انه قد تمادى في الكشف عن ارائه ومعتقده باكثر مما ينبغي لموظف يكسب قوته من خدمة الحكومة وان سجونا باستيلية صارت تستقبل منذ زمن رجالا تهامسوا بالذي هو يجهر به ويعلن ، وان اولئك الرجال شبعوا ظلما وتعسفا وهوانا . فقضت مضجعه اشباح الجواسيس والتقارير السرية والفصل من الخدمة والمطاردة المقلقة في الحانات والمقاهي والمكاتب .

الا ان شوقه لمطالعة جريدة (الاهالي) لم يفتر ولم يهن في يوم من الايام ، فقد زاملها منذ صدورها واقام على مطالعتها باهتمام وشغف . في الصباح عندما يخرج الى عمله يقصد محمودا بائع الصحف فيلتقط من امامه جريدته المفضلة ويطويها بعناية ويدسها في جيب سرواله الخلفي ، وصدف ان اشار محمود ذات يوم ـ ان

(الاهالي) خير الصحف والناس يقبلون على قراءتها ـ فجزم عبد الحميد في الحال أن محمود جاسوس وصار يبتاع جريدته من بائعين مختلفين ومن أماكن مختلفة حتى أنه ليتمنى أن يغمض البائع عينيه ولا يشهده أية جريدة قد أختار .

وفي المكتب تبدأ هواجسه بالاستيفاق . فجريدته مطوية في جيب سرواله تتلقى حرارة فخذيه ولا يجرأ على اخراجها ومطالعتها ، فيستبد به الشوق وهو حائر متحسر ، فيقبل عليه بعض الكتبة الذين يشك عبد الحميد في حسن نواياهم ؛ يبتدرونه سائلين ـ هل لديك بعض الصحف؟ ـفيجيب بنبرة دفاعية ـ ايشيء يقرأه الانسان كلها سخف وتهريج ـويتمتم بين شفتيه ـ الملاعين جاؤا يتجسسون ـ فينبري أحدهم ـعندنا (الأهالي) هل تود مطالعتها ؟ ـ فتتجسد المصيدة أمام عيني أبو نبيل فيهتف مغتاظاً ـ لا أريدها . أقلام مأجورة اناس انتهازيون يهدفون الى الكراسي .

وعندما يقع بصره على احدى الصحف الاخبارية الضاربة بسهم عال في ميدان التفاهة والملق ينكب عليها السيد عبد الحميد انكبابا مصطنعاً مادحا كتابها وتبويبها ، أما (اهاليه) فتلك لاتقرأ ولاتمس حتى يكون في بيته وبين جدران غرفته الاربعة ،يقرأها بنهم وشوق متمتما بين أسنانه لدى كل فقرة تعجبه وتستهويه ـحقائق دامغة ، معارضة نزيهة ، رجال نذروا نفوسهم لنصرة الحق والعدالة والديمقراطية

هذه الواهمة المبالغة في التحفظ والحرص والجزع ضايقت اصدقاءه الخلص المقربين ،فكلما جلس في مقهي تفحص بدقة اطرافه الاربعة دارسا وجوه الجالسين واحداً بعد واحد محاولا ان يحزر ايهم هو الجاسوس ، ولا تخلو جلسة من جلساته دون الايماء الى رجل صامت بادى الانتباه ـ هاهو جاسوس ـويرجو جلساءه ان يديروا دفة الحديث صائحا فيهم ـ نعم ايها الاخوان ان بيرة فريدة انسب المشروبات وراقصات البارادايس اعظم الراقصات !.

وذات مرة اوقعه اصدقاؤه في الشرك الرهيب الذي يرتعد منه فرقاً . أتوا

له برجل غريب مقطب الوجه صارم ماكر النظرات تعلو سيماه الفظة صرامة البوليس . جلس هذا الرجل الى جانبه وبادره دون تمهيد ـــ هل معك جريدة (الاهالي) ؟ فانتفض عبد الحميد كمن لدغته عقرب واجاب بلسان متلجلج . .

ـعفوا ايها السيد انا لا أقرأ (الأهالي) ولا أقرأ الصحف مطلقاً ولا احسن القراءة كما ينبغي ـ

فرد الرجل الغريب في لامبالاة باردة ـــ بلا مداورة انك تقرأ (الاهالي) كل يوم ،وهي محفوظة الان في جيب سروالك . نحن لسنا مغفلين كما تظن، نعرف كل شيء عن الناس ولكننا ننتظر الساعة المناسبة ـ وتركه الرجل دون ان تأخذه الشفقة على اضطراب ابو نبيل وامتقاع وجهه . قال لنفسه في تأكيد ـ غدا ستبدأ المخابرات السرية وترفع التقارير بالحبر الاحمر وتستحصل أوامر تحري البيت وتقبل الشرطة السرية فينبشون وينقبون فى أرجاء البيت وزواياه ومخابئه ويفرغون الوسائد من الريش والاغطية من القطن ويقرأون الرسائل والاوراق وما من انسان في هذا البلد أستطاع ان ينجو من هذه الغارة الليلية المرعبة ـ فقام مسرعا وشخص الى داره وفي عزمه ان يمحو اثار (جريمته) ما استطاع الى الامحاء سبيلا. فى تلك الليلة المشؤومة اضرم عبد الحميد النـــار في التنور وملأ فوهته باعداد (الأهالي) كلها .يتصفح العدد ويقرأ العناوين البارزة ويتذكر الاحداث التي املت ذلك المقال فيتنهد باسف ويلقى به في النار ، والقى كذلك مجموعة ثمينة من الكتب التي يخشى ان تجر عليه البلاء ، فتصاعد الدخان الكثيف الى منخريه ولوث ثيابه بالهباب ، ثم عاد الى غرفته فاخرج قرآنه الكريم وفتحه فوق المنضدة ونثر على بساط الغرفة جرائد اخبارية ونشرات دينية واعلانات سينمائية ، وقبل ان تخمد النار فى التنور أقبل المتآمرون على راحته وسلامة عقله . دخلوا عليه وهو ممتقع مذعور يطالع تصريحا لأحد رؤساء الوزراء العتيدين فى الحكم ،فسأله أحدهم

ما هذا يا أبا نبيل أين (الأهالي) ؟ فصرخ غاضبا كأنما يود أن يسمعه حتى المارون بالطريق ـــ لعنة الله على (الأهالي) جريدة الزنادقة والكفار ـ ثم خفض صوته وقال هامسا ـ الليلة يقبضون علي . طاردني أحد الجواسيس فى المقهى . . آه ضاعت وظيفتي أنعدم مستقبلي تهدم بيتي لكم كنت أحذر الجواسيس ولكم كنت أخشاهم ـ وأنشأ يجهش ويندب حظه فاخذتهم الشفقة على حاله فاستدعوا له الرجل الغريب الذي تركوه ينتظر عند الباب فشهق عبد الحميد نفساً عميقاً وكاد يغمى عليه من هول المفاجآة .

زواج مصلحة

استيقظ السيد صلاح الدين في نحو الساعة السادسة صباحاً على دوي بوق السيارة العميق فتمطى في فراشه الوثير بتفتر وكسل ـ اواه اجازة شهر كامل تتقضى بمثل هذه السرعة المدهشة ـ هذا ما قاله لنفسه في غرابة .

ظل البوق يدوى عند الباب في ضربات شديدة مزعجة ، فصاح الاستاذ من الداخل ـ انتظر صبرا ـ القى الغطاء جانبا وازاح الستارة عن نافذة الطريق فطالعته السيارة الفخمة التي استأجرها ليلة أمس وعند عجلة قيادتها جلس سائق اشعث سمين ، اجاب في اعتذار ـ حسبتك نائماً بيگ ـ فنهره صلاح الدين - وهل توقظني ببوقك المزعج ؟ انحن في ثكنة ـ ورد الستارة الى مكانها متمتما في حنق ـ حيوان ـ رويدك ايها القـــاريء العزيز فلا تغضب علي ، قد تقول كيف يكون هذا البطل سيداً ثم يتحول الى استاذا ويغدو في اخر الامر بيـــكا . هذه مسألة سأسوق اليك حلها .

السيدصلاح الدين قاضيا او حاكما كما يطلق عليه في عراقنا العزيز ، فاثناء تنقلاته وترفيعاته وتنسيباته تكتب له الاوامر الادارية ـ السيد صلاح الدين ـ وتنقلها الصحف بنفس النظام واذا ما يجلس الى منصة القضاء ، ويتقدم اليـه المحامون لالقاء دفاع موكليهم ينعمون عليه بالاستاذية عن طيب خاطر وحتى في ساعات فراغه يسمعه الموظفون ومعلمو المدارس واولئك الذين ينادون بالتحرر

ـ استاذا ـ ولكن هنالك رصيد كبير هائل ،هوعامة الناس والاعراب، فالبيك هي النغمة الطبيعية الخارجة من آلاف الافواه لا ينقطع لها مد ولا يحصرها حصر ممزوجة دوما بالمسكنة والضعة والاستسلام .

في فجر ذلك اليوم انتهت اجازته . اجازة شهر كامل ابتدأت منذ انفكاكه فى السابع عشر من الشهر الماضي وها هو اليوم السابع عشر من الشهر الحالي ميعاد مباشرته .

جلس الى المرآة وحلق ذقنه واطرى وجهه بالكريم واغتسل وتعطر وصف شعره الجميل المفروق من الوسط وشذب بعض جوانب شاربه الصغير وشرع بارتداء ملابسه . اولا قميصه الحريري الابيض عاقدا عليه ربطة زاهية وبعدها البدلة الشتوية الانيقة ضافياً فوقها جميعا معطفهالجديد الذي ابتاعه قبل اسبوع .كان له معطف سميك أسود من النوع الذي يرتديه السفراء وشيوخ البرلمان ثم أتته وافدة المودة فاستبدله بآخر خفيف فاتح بلون أجنحة الحمام ، فالقى نظرة عاجلة على المرآة الطويلة اللامعة فابهجه، قده الممشوق ووجهه المستدير المتــألق .

سارت السيارة تنهب بهالارض وقد تمدد فوق مقعدهافي استرخاء ،تتململ من تحته الرفاسات القوية صاعدة هابطة ، فإتكأ مرفقه بالمسند المخملي الناعم مطلقا لافكاره العنان .

بدت له معالم بغداد . فثمة الكازينات والفنادق والمطاعم التي اعتاد ارتيادها أيام اجازته . كانت جميعا مغلقة الابواب مظلمة وسخة قد أضطجع عند أبوابها نفر من المشردين التعساء قد التوت اجسادهم واختفت رؤوسهم اشبه بالقنافذ المرتعبة .

عند باب المعظم ابتاع أربع صحف تمثل اتجاهات الرأي العام فى البلد

فالرجل يهمه بالمحل الاول التعيينات والترفيعات والوفيات والتنقلات واخبار اولئك الذين يمكن ان يصنعوا له خيرا أم شـــراً . طالع الصحف جميعاً او بالاحرى تصفحها ثم تشاغل بالنظر الى جوانب الطريق .

انقضى الشهر الماتع اللذيذ . أماسي دافئة في شريف وحداد ، مجالسات سارة مع مميزي الوزارات ومدراء الشرطة ورؤساء الدوائر الصغيرة ثم انطلاقات ليلية الى النوادي والمراقص ومصاحبة الفنانات المذرورة وجوههن بالمساحيق فيقدم لهن سكائر حمراء مذهبة الحواشي ويولعها وهي افواههن فتستبين شفافهن القرمزية المشتهاة . انقضى الشهر وها هي السيارة قد أجتازت آخر حدود بغداد وبرز الريف الاجرد الحزين مع نسائه الحافيات الملفلفات بالصوف يحصدن الشوك ، ومضخاته المتنتنة الزافرة دخانها الاسود ، لاشيء البتة يثير اهتمامه . المقاهي المشيدة بالقصب والمفروشة بالحصران المتهرئة والحاكي العتيق يستنبط صوتا عميقا مخربشا وبضع مزارع متباعدة كانها نقط من الحبر وسط بحيرة ترابية لا يحصرها نظر .

غاص صلاح كرة اخرى في تأملاته . فهو حاكم يتمتع بامتيازات ويشمله قانون خاص ويرجوه أحياناً أناس ذوو وزن لتمشية أعمالهم ولكن ايكفى كل هذا؟ ان له أصحاب تلقوا العلم معه في الكلية وتخرج واياهم فى عام واحد أضحوا اليوم نوابا وفي طريقهم الى الوزارة . فصديقه محمود تخطى المناصب ليس قفزا بل هرولة خاطفة . كان حاكما مثله وبوثبة واحدة احتل كرسيا من كراسي النيابة .

لقيه ذات ليلة في مرقص الامباسي محوطا بشخصيات لامعة فانزوى صلاح في ركن قصي مشدوها بحظ صديقه ومكانته المرموقة وفي اللحظات التي يشتد فيها الصخب ويتزاحم الجالسون التقى بصديقه محمود وجها لوجه هتف هذا مرحبا ـ أهلا بصلاح .

وبكلمات موجزة شرح لصديقه انه قد تزوج أبنة رجل مرموق عضو في الاعيان وصاحب فخامة وقد اضجرته الحاكمية بالتنقل هنا وهناك فى مناطق مقفرة معدومة التسلية تفتقر لكل ما يجعل الانسان يبتسم ففضل النيابة وهي المجاز المفضي الى السلطة حيث يتخمر فيه المرشحون قبل ان يغدو وزراء .

قال صلاح لصديقه في لهفة مبطنة بالحياء ـ انني لما اتزوج بعد وبالمناسبة هل لها اخت ؟ أعني الزوجة المحترمة .

ـ أبتسم النائب في مراوغة ـ نعم لها أخت انضر منها شـــبابا . . . انها تلميذة في معهد الملكة عالية . . . هل تود ان تقول شيئاً ياعزيزي نحن جد في الخدمة ـ فتلعثم صلاح الدين وصمت ـ كذلك . انتهت هذه المساجلة الملغوزة المشحونة بالايماءات وجس النبض .

أخيراً أشرف الحاكم على منطقة عمله . لاحت الاطلال والقبب وبرزت البساتين المسورة بالطين أشبه بالمقابر وتصاعد نعيب الغربان ودب الحفاة من كل صوب ولاح الفقر والبؤس والعناء . ليست مدينة فى القرن العشرين قرن الذرة والصاروخ بل قرية آشورية مطمورة أزيح عنها التراب فبدت اطلالها الدارسة . وفي صالة المرافعة اقتعد كرسياً قديما مطرزا بالمخمل البالي ، فتقدم المحامون ورئيس البلدية وافراد الشرطة ومأمور النفوس وسواهم للسلام عليه . فتلفت صلاح يمينا وشمالاً شاعراً اكثرمن ذي قبل بوطأة الحياة فى هذا المنفى المقفر ، ثم أنقلب الى منزله فجابهته الاحجار الخشـــنة المتراصة في غير براعة تعزلها عن السماء سقوف من البردي والنخيل ذات فجوات كبار تكفى لاضطجاع حيوان . تمر الساعات في هذا المنزل بطيئة مثقلة بالعبث والضجر وازهاق الروح . على مكتبه في البيت ينهض صف من كتب القانون والسياسة والادب أستعار بعضهـا من محامي منطقته وأبتاع البعض الآخر من مكتبات بغداد الا انه لم يطالع فيها الا قليلاً .

غالبا مايستبد به الصداع حالما يلمسها فيجد عذراً مناسباً لتأجيل مطالعاته اما فى هذا اليوم فقد بدت له الكتب مضيعة للوقت ، فالتعرف الى شخصية مرموقة متنفذة خير من مطالعة مئة كتاب في القانون والسياسة والادب وهذا ما فعله محمود صديقه النائب وما هو بسبيل ان يفعله بالذات .

فكر بصديقه محمود انه اللحظة من غير ريب متمتع بحديث شيق مع وزير او مدير عام يتباحث معه فى شؤون الوزارة وموقف الحكومة وفي كل ساعة تاتيه بطاقة دعوى لاحدى الحفلات الساهرة ، كما ان زمرة من فاتنات بغداد يصطدن منه المواعيد ، فامسك بالقلم وكتب لصديقه الكلمات التالية .

لا أريد ان أطيل رسالتي لقد عزمت على الزواج وانتهى الامر لا اطيق البقاء فى العزلة القاتلة سأكون فى غاية الامتنان لو دبرت الامر كما ذكرت لي عند لقائنا فى الامباسي .

الا فلتحيا تلميذة معهد الملكة العالية وليحيا الزواج السياسي .

ضاعت الفرصة

كان احمد يمضي في سبيله عبر الازقة الغائصة في الوحل ، فاضطر حفاظاً على سرواله الوحيد من التلوث الى رفعه بكلتا يديه مما جعل سيره مترنحا مهدداً كل لحظة بالانكفاء على الارض . كان يقصد صديقه مصطفى وهو فراش دمث الخلق يعمل فراشا في وزارة الاشغال له بعض الدالة على مرموق يعمل مديراً في احدى الشعب . كان حامي مصطفى وشفيعه فى الوزارة ، وقد التمسه غير مرة ان يحشر صديقه فى وظيفة كتابية متواضعة تناسب ثقافته وتحصيله دون الثانوي .

وحال ان بلغ احمد الوزارة ارتقى درجاتها العراض الضحلة ومضى فى اتجاه صديقه مصطفى وهو على شبه يقين ان وعداً جديداً سيضاف الى الوعود الماضية ، وان تسويفاً آخر سيلحق بالتسويفات التى خلت .رغم انه امروء عاطل منذ ستة اشهر يعاني برحاء البطالة بكل ثقلها ومحنتها قال ، مصطفى في تأمل :

-انتظر قليلاً انني سأتحدث الى المدير كرة أخرى .

وهم احمد ان يوقفه ويوصيه بشيء ما ، الا انه ما عتم ان تلعثم وصمت ولاحظ مصطفى حيرته وتردده فأخذه الاشفاق على صديقه . جالت فى خاطره فكرة الا انه كتمها مخافة ان يجرح عواطفه فغاب بضع دقائق عاد بعدها وعلى محياه سيما التفاؤل والارتياح .

ـ وعداً مفعولا بعد بضعة ايام ستحصل الشواغر انك من غير ريب ستنال أفضلها .

تردد احمد مرة اخرى وهم ان يقول شيئا فتلعثم وأرتج عليه ولاذ بالصمت على مضض . كان يود ان يفهم صديقه انه يقبل وظيفة فراش ، غير انه لم يجروء ، حاسباً ان صديقه سيدهش لهذا التنازل الفجائي الدال على الاتضاع والمسكنة ، فمصطفى فراش بسبب أميته وجهله وافتقاره الى أي من الشهادات بينما هو فى الصف الثالث المتوسط يقرأ ويكتب فالوظيفة أجدر به واليق ، تنهد أخيراً :

ـ ماكو شاغر . ربما يكتشفون علاجا للسرطان والسل ولن يكتشفوا علاجا لماكو شاغر هذه البصقة السرمدية يقذفونها دوما في وجه طالب العمل

غلبه الحزن وذهب بمزاجه فحاول مصطفى ان يرفه عنه ولم يفعل في هذا السبيل سوى ان دس درهما في جيب صديقه قائلا في ثقة وعزم .

ـ تريث ان الامور تنتهى الى الاحسن

وهم مصطفى ان يضيف شيئا ما الى كلماته فتردد ولاذ بالصمت مثلما فعل صديقه قبل دقائق ، وقال في آخر الامر بنبرة حزينة مواسية ـ مستقبلك افضل من مستقبلي انك امروء متعلم تحمل شهادة ما وتقرأ وتكتب كما يقرأ ويكتب العلماء وثمة ألوف في دواوين الدولة يتناولون خبزهم عن طريق الوظائف تسندهم الوساطات ، كل الامور تجري على هذا الوجه .

في المساء لقي صديقه مصطفى في المقهى . كان الاسى قد بلغ باحمد حد الالم ولم يعد في قوس صبره منزع واعتزم ان يصارح صديقه بقبول عمل فراش . وجد مصطفى مقتعداً احدى مصاطب المقهى يقرقر بنارجيلة ومضوعة امامه وينشر من فمه الدخان . كان مهندما بعض الشيء ولم تكن عليه بذلة الفراشين تدانى احمد قليلا ثم استجمع اطراف شجاعته وقال :

ـ قل للمدير انني اقبل وظيفة فراش .

فانشده مصطفى والقى النارجيلة جانبا هاتفا في شبه غيظ .

ـ هكذا اذن لم لاتقل فى هذا الصباح . كان بامكانك ان تتعين هذا اليوم . شغرت وظيفة فراش ولكنني استحييت ان أجابهك لئلا تتكدر، فترددت وأثرت الصمت

غمغم احمد في يأس ـ استحييت ان تهزا بى ،

هتف مصطفى فى ندم ـ هممت ان اقول ولـكن خيطا غير منظور اعتقل لسانى وأسكتنى ، ربما قد يكون سوء الحظ نفسه .

ردد أحمد في شبه ذهول وهو يتخذسبيله عبر الاوحال التي تهدده بالانكفاء على الارض ـ أجل انه سوء الحظ .

رجل من الصرائف

كان رجلا ضئيلا ناعم القد يقف على مفترق الطريق الضيق الموحل والمزدحم بشتى القاذورات العفنة ، قد وضع قدميه المحذيتين حذاء من احذية الجنود فوق قضيب السكة الفولاذي المتين وطفق يجيل النظر في سأم ونفاذ صبر كمن يترقب خبراً مثيراً فاجعا .

تنتشر فوق رأسه لطخات من السحب رمادية داكنة ضاربة الى السواد ما فتئت تتعاظم وتتسع ملتهمة في طريقها فرجات الزرقة الصاحية المؤذنة بالزوال والتلاشي .

في كل مكان من المدينة سيرفع الناس انظارهم الى السماء من العمارات الشاهقة في شارع الرشيد ، من ابراج المطار ومن قلاع الجند ومن هنا كذلك ، من هذا الدرب الضيق الموحل المثير للغثيان .

وقف الرجل الضئيل صامتاً اخرس يستدل من اختلاجات شفتيه والتماع النور في عينيه واضطراب تنفسه انه يعاني وطأة قلق ثقيلة شاقة . قد ضم تحت ابطيه خشبتين صغيرتين تلتف عليهما خرقتان رقيقتان واحدة خضراء والاخرى حمراء لايخطى المرء في حسبانه احد عمال السكة المكلفين بتزويد القطار بالاشارات عند دخوله المحطة وخروجه منها .

كان المكان غاصاً بالاطفال من مختلف الاعمار ، يبدو انهم قد أعدموا كل وسيلة تدخل المسرة الى نفوسهم غير المتأرجح بقضبان السكة في المواضع المجوفة المعدة لمسيل المياه الوسخة ، فهم يتأرجحون ويتقلبون وينبطحون وينثنون والرجل يحذرهم طيلة نهاره مخافة ان تفاجأهم القاطرة فتطحنهم بعجلاتها ، وكانت القطر ذاهبة أيبة ينطلق صفيرها الحاد ، حاملة الدمار لكل من تمسه بحديدها ،

كان على الاطفال جلابيب فقطفكلما تأرجحوا وتقلبوا انحسرت الى ما فوق بطونهم فتتكشف من تحتها سيقان نحيلة مخضرة فقيرة بالدم .

على جانبه اربعة توابيت من الخشب الابيض ملقاة فوق الوحل . اثنان جديدان متينان غائصة فيهما المسامير ، واثنان قديمانمهشمان نافذة منهما المسامير. هذه التوابيت معدة لنقل الموتى الفقراء الى مرساهم الابدي تبرع بها بعض أهل الخير . حتى هذه الاشياء المحزنة لم تنج من عبث الصبيان كان بعضهم يثب فوقها او يتربع بداخلها او يتمدد فوقها مسبلا يديه ومغمضا عينيه مصطنعا ضجعة الميت .

كان يقف الرجل علىمقربة دانية من التوابيت طيلة ساعات عمله . وقد شهد عشرات المرات كيف يقبل الناس مولولين نائحين فيختطفون تابوتا ويذهبون به ، يتخيرون دوما التابوت الجديد المتين ثم يعيدونه الى مكانه كرة اخرى بعد بضع ساعات وعلى خشباته نتف صغيرة من القطن .

اقبل القطار يهدر ويدمدم باعثا صفيره العاوي المروع ، كان يخترق دربا لزقا مطينا ، تقوم على جانبيه بيوت خفيضة السطوح متأصصة ملزوزة ، قد لطخ الوحل أبوابها المقرقعة ونوافذها نصف المزججة والمغلف نصفها الآخر بالورق والمقوى وضروب الخرق . كانت السكة تتلوى على الدرب أشبه بمسير الحلزون فيصطدم صفير القطار بالجدران المتقاربة فتتعاظم شدته ويقوى صداه .

كان الرجل يفكر في كأبة واستغراق ، فطرد هواجسه في الحال وهب على خرقته متعجلا في نشرها امام القطار المتقدم ، فتلفت حواليه في ذعر مخافة ان يغفل عنه احد الصبيان وتقع كارثة . كان بعضهم يتحدى الرجل . بل ويتحدى حتى القطار نفسه فيظل متأرجحاً لاهيا ، واذ ماتغدو العجلات نحو متر منه ينزلق منها ضاحكا مضجا فيصفق له الآخرون ويهتفون . .

شرعت قطرات المطر تنقر الارض الندية وصحبتها ريح رفيقة مالبثت ان جاشت وعتت ، فلطمت مصاريع النوافذ والابواب وغدا الطريق يقفر باستمرار

وانجر الصبيان الى بيوتهم ، فلملم الرجل جوانب معطفه وشده قويا حول جسده المرتجف المبلل وشخصت أبصاره الى الصرائف النائية حيث ينسدل على طول المدى ستارة مهزوزة تنسجها قطرات الماء المتساوقة الوقع ، كانت تلك الصرائف تتلقى المطر بسطوحها المسنمة فنغتسل بعضه وتبتلع البعض الآخر فى جوفها الاهل بالآدميين . كانت صريفته قائمة بين تلك الصرائف وليس من انسان يستطيع تمييزها عن الاخريات ، فقد وفد ذات يوم الى هذا المكان جمهور حاشد من البشر المطرودين المهانين ، فاوتدوا ركائزهم ونشروا فوقها الحصران وأقاموا تحتها كالأسرى . لم تكن صريفته في مدى بصره وهذا ما أورثه القلق والكرب فى ذلك اليوم .

بالامس كانت زوجته مريضة ،آلمت بها حمى مروعة طرحتها فراشا ، وعند منتصف الليل اعتدل مزاجها ففتحت عينيها وشرعت تصغي في ذهول الى اخباره وأحاديثه . كان يشاع بين سكان الصرائف ان الحكومة قد ازمعت انشاء مساكن لهم لترفع من مستوى آدميتهم ، وان نحو من ٣٠ الف انسان يحيا على شاكلتهم وان هذه المساكن الجديدة ستشيد بالاجر وتحتوي على غرفتين وسيكون لهم مستوصف وطبيب يصرف لهم الدواء كما ان مدرسة للصبيان ستشيد أيضا فيؤمها أطفالهم كما يؤم اطفال المدينة مدارسهم ، ويزعمون ان حياة جديدة ستشع انوارها تنظم موازين العدالة وتنصف المظلومين وتعيد للانسان قيمته ؛ فكرت المريضة هل سيمتد بها العمر الى ذلك اليوم .

اما الرجل المبلل الرازح بالهموم فكان يفكر بزوجته ، ان ماء المطر سينفذ الى الصريفة ويبلل فراش المريضة فيؤذي صحتها . تمثلها الرجل في ذهنه المضطرب كانت في الليلة الفائتة تبتسم في مرارة بشفتيها اليابسين المشققتين . وكان المصباح الكدر الداخن يلقي نورا مصفرا يساقط على وجهها الصغير فيزيد شحوبه وكانت تمسد عنقها باصابع مرتعشة خالية من اللحم ، فجثا الى جوارها ينتحب تارة

ويغمغم بكلام لامعنى له تارة اخرى .

اخترق المطر معطفه ونفذ الى سترته وقميصه ، وسال على رأسه وصدغيه وانفه واحس ان تحت قدميه نوافير تبقبق وتزبد تمتم — ياالهي ان حالي لتشبه حال الكلاب ، حتى الكلاب لم تعـــد تتراى في هذا الهيجان المطري أما التوابيت الاربعة فقدبقيت مكدسة في مكانها، اذ لم تقع لاحد من الناس حاجة بها قدانكمشت فيها نتف القطن فغدت اشبه بكرات الحالوب .

كان احد جيرانه يتقدم نحوه من مكان بعيد ، دافعا بدنه تحت وابل المطر شاقا طريقه وسط الاوحال . لم يتبين الرجل ملامحه بوضوح بيد ان سرعة سيره قذفت الرعب في قلبه تقدم جاره وهو يلهث لهاثا شديدا صاح في هلع ـــ عاصي عجل كلثومة تلفانة ـــ كان عاصي قد نشر خرقتة الخضراء وطفق يلوح بها بيديه المبتلة وقد اظلمت اساريره اظلاما تاما ، فزعق القطار وارتجت الارض وهدرت الماكنة باحتدام وانطلق الزفير الاسود المشبع بماء المطر يذوب في الفضاء .

مضى عاصي مع جاره والخرقتان ما تزالان مطويتين تحت ابطه ، فاستجلاه في الطريق ـ كيف حالها ؟ هل قضى الامر ؟ فهز الجار رأسه في أسى فزفر عاصي ـ بجرس منتحب مخفوض ـ أيه كلثومة فقدتها ، بالامس كانت تحلم بالبيت الاجر والمدرسة والمستوصف والطبيب . . . هكذا أذن .

وفى ظلمة الصريفة الدامسة المغرقة بالعتمة الكئيبة العاصرة للقلب لقى زوجته مسجاة في جلال على سريرها قد أغلقت عينيها بإباء واطمئنان فجثا عاصي الى جوارها مطلقاً لدموعه العنان ومن خلال الغشاء البراق المضبب بدموع عينيه لمح تابوتاً جديداً يدخل الصريفة فأرتعد عاصي من رأسه الى أخمص قدميه . كان الماء يقطر من التابوت ولم تكن لعاصي أية حاجة للتمعن فيه فطالما لقية مطروحاً قرب السكة يقفر فوقه الاطفال .

طبـــع على نفقـة مطبعـة الثقـــافة
بغداد ـ شارع الرشيد مقابل سينما الحمراء ـ تلفون ٨٧٢٣٧

ثمن النسخة ٧٠ فلساً